الأستاذ

عصام حسين الحُرّ

جنوب لبنان – جباع الحلاوة

عضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين،
عضو المجلس الثقافي للبنان
الجنوبي.

ـ من مواليد يوم الثّلاثاء 6 كانون الأوّل 1955م/ الموافق 20 ربيع الثّاني 1375 هـ. في جباع الحلاوة ـ قضاء النّبطيّة.

ـ أستاذ تعليم ثانوي في ملاك ثانويّة المقاصد الإسلاميّة في صيدا، ثمَّ منسّق اللّغة العربيّة فيها.

ـ منسّق اللّغة العربيّة في ثانويّة السّفير في الغازيّة.

ـ أستاذ الأدب العربيّ بالتّعاقد لطلاّب المرحلة الثّانويّة في ثانويّة كفر حتّى الرّسميّة.

ـ أستاذ الأدب العربيّ بالتّعاقد لطلاّب المرحلة الثّانويّة في ثانويّة د. نزيه البزري الرّسميّة في صيدا.

ـ أستاذ الأدب العربيّ بالتّعاقد لطلاّب المرحلة الثّانويّة في ثانويّة رفيق الحريري في صيدا.

ـ مُشارك في تحرير نشرة «الأفق العربيّ» الصّادرة في صيدا ثمّ رئيس تحريرها.

ـ سكرتير تحرير مجلّة «إليسار» الصّادرة في صيدا.

ـ شاركَ في تحرير مجلّة «صيدا عبر العالم».

ـ تولّى إعداد صفحة التّسلية (كلمات متقاطعة وسواها) في ثلاث دوريّات بيروتيّة هي: مجلّة «فنّ»، مجلّة «الكفاح العربيّ» الأسبوعيّة (ثمّ جريدة «الكفاح العربي» اليوميّة)، ومجلّة «سامر» للأطفال.

ـ كقارئ، نشر عددًا كبيرًا من المقالات في جريدة «السّفير»، وهي مقالات انتقاديّة تناولت الأزمات الاجتماعيّة والخلل القائم بين المواطن والدّولة على صعيد الخدمات.

ـ عضو «اتّحاد الكتّاب اللّبنانيّين».

ـ عضو «المجلس الثّقافيّ للبنان الجنوبيّ».

ـ عضو منتدى صيدا الثّقافيّ الاجتماعيّ.

ـ عضو الهيئة الإداريّة لـ «جمعيّة آل الحُرّ الثّقافيّة الاجتماعيّة»، ثُمَّ رئيسها.

النّتاج الأدبيّ

ـ «مملكة شاهين» (مجموعة قصصيّة): ثلاث طبعات.

ـ «البوصَلة» (رواية): طبعتان.

ـ «ألوان من ثمار» (رواية).

ـ «خيمتان وغرسة» [خواطر ومدوَّنات وشذَرات من ذكرَيات).

ـ «خلف المخمل» (رواية).

ـ « ثرثرات على رصيف الزّمن» (رواية).

ـ «قلبٌ في قبضة الزّمن» (رواية).

ـ «همَسات صاخبة» (مقالات وكلمات في مناسبات).

ـ « وردة الحقل» (سيرة).

ـ «.. والتقى المتوازيان» (رواية).

- « الحوض» (رواية).
- « مجرّد إشكال» (رواية).
- السّيرة الذّاتيّة (مخطوطة)

النّتاج المدرسيّ

- «كتاب المطالعة العربيّة» لطلّاب المرحلة المتوسّطة العُليا إعدادًا وتأليفًا بالتّعاون مع الأستاذ وليد جرادي.
- «دليلك إلى اللّغة العربيّة» لطلّاب الشّهادة المتوسّطة إعدادًا وتأليفًا بالتعاون مع الأستاذ وليد جرادي.
- مشاركة فعّالة في سلسلة «المدخل إلى التّعبير السّليم» إعدادًا وتأليفًا بالتّعاون مع الأستاذ وليد جرادي.
- مشاركة في إعداد سلسلة « المدارج في القراءة والأدب» لطلّاب المرحلة المتوسّطة.
- شاركَ لسنوات في تصحيح امتحانات شهادة «الثّانويّة العامّة»، وقدّم عددًا غير قليل من النّصوص لبنك الأسئلة.

نبذةٌ عن...

1- مملكة شاهين

هي مجموعة أقاصيص منتزَعة من البيئة الاجتماعيّة اللّبنانيّة، صدرت في ثلاث طبعات، وقد أُلحق بها في طبعتها الثّالثة عدد من المقالات المتعلّقة ببعض المناسبات.

نصّ من المجموعة

اغتيال

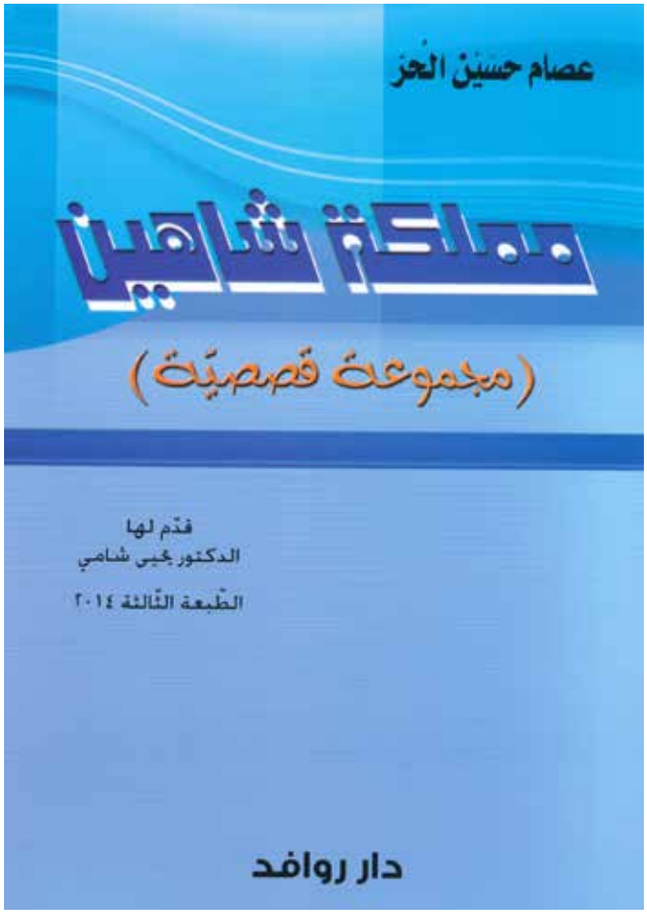

انطلقت به السّيّارة تشقّ طريقها باتّجاه القرية. شعور غريب تملّكه في تلك اللّحظات. إنّه عائد لتوّه من السّفر، وما هو سوى وقتٍ يسير ويرى قريته بعد عشرين سنةً أمضاها في تلك البلاد البعيدة.

كان شعورًا غريبًا بالفعل، فمَعالمُ القرية الّتي غادرها وهو لم يتجاوز الثّانية عشْرةَ من عمره ما زالت محتفرةً في ذهنه. ما زال يذكر كلّ شيء فيها... البيوت المتقاربة حينًا والمتلاصقة أحيانًا، الطّرقات التّرابيّة المنسابة بخفرٍ بين البيوت، البساتين الملتفّة عقدًا أخضر توشّيه الألوان... حتّى وجوه النّاس ببعض تفاصيلها لم تغادر مخيّلته.

كانت القرية مرتسمةً في ذهنه ارتسامَ لوحة

بدعتها يد فنّان، لوحة حافظت على نضارةٍ في الألوان، وثَباتٍ في الخطوط، حتّى لكأنّ الزّمان قد توقّف في لحظةٍ محدّدة، فلم يتحرّكْ بعد ذلك.

شوق كبير كان يتحكّم بخليل العائد، لكنّه ليس شوقًا عاديًّا، إنّه شوقٌ يشوبُه شعور غامض بالمرارة، ربّما هو يشعر بأنّ ابتعاده عن قريته قد طال أكثر ممّا يجب، أو ربّما هو يشعر بأنّ شيئًا ما قد فقدَه خلال هذه الغربة الطّويلة. نوع من الشّعور بالذّنب سيطر على تفكيره في تلك اللّحظات وهو يراقب السّهول المتراكضة خلف نافذة السّيّارة. عشرون سنةً مضت وهو بعيد عن تلك البقعة من الأرض الّتي أحبَّها وعشقَها وأمضى فيها أجمل لحظات طفولته. يشعر بشيء من الحسرة لأنّه ابتعد كلّ هذه السّنين عن تلك البقعة الّتي استوطنت عقله وقلبه.

عشرون سنةً مضت وهو بعيد عن أولئك النّاس الّذين لم تزده الغربة إلّا تعلّقًا بهم. إنّه النّدم يطرق تفكيره ويهزّ كِيانه. كان عليه أن يبقى في تلك القرية الطّيّبة. ما كان عليه أن يغادر. كان عليه أن يتمسّك بالبقاء فيها. كان عليه أن... لكنْ، لماذا يظلم نفسه إلى هذه الدّرجة؟ أ لم يكن والده هو الّذي اتّخذ ذلك القرار المفاجئ بالسّفر؟ هل كان باستطاعته أن يعاند قرار والده؟ بالطّبع لا، فأبوه من النّوع الّذي لا يحوّله عن رأيه جدال أو نقاش، وعندما قرّر أن يبيع كلّ ما يملكه في القرية والسّفر إلى الخارج، لم يكن أمام أفراد الأسرة سوى الانصياع. انصاعوا برغم أنّ أحدًا منهم لم يكن راضيًا عن ذلك. أمّ خليل بكَت يوم السّفر. هو وإخوته حاولوا، بطريقتهم، إقناع الوالد بالبقاء في القرية، لكنّ قراره كان حاسمًا: سُبُل العيش ضاقت هنا، ولا بدّ من السّفر.

لحظة السّفر كانت مُرّة. يتذكّر خليل. يومها، عندما انطلقت بهم السّيّارة، تعلّقت عيناه عبر الزّجاج الخلفيّ بالقرية... راح يراقب البيوت، الحقول، وحتّى الأشجار، ومع انحدار السّيّارة باتّجاه المدينة، بدت قريته على كتف ذلك الجبل وكأنّها معلّقة بين الأرض والسّماء.

ما زال يذكر جيّدًا أنّ دمعةً ساخنة ترقرقت في عينيه وهو يرى قريته تبتعد عنه. سؤال كبير طرق تفكيره في تلك اللّحظة: هل تسمح له الأيّام بأن يعود إلى قريته يومًا؟ وبقي السّؤال عالقًا في ذهنه برغم أنّ ظروف الحياة كانت دائمًا أقوى منه.

وها هو اليوم يعود متشوّقًا لأن يرى مَرْبَع طفولته، ويغمره شعور بالسّعادة لأنّه عائد إلى أرضٍ لطالما عرفها وأحبّها صغيرًا، لكنّ شعورًا بالأسى يتملّكه لأنّه سينزل ضيفًا على أحد الأقارب لأنّه لم يعدْ يملكُ شيئًا من تراب تلك القرية، أو حتّى من حجارها.

بلغت السيّارة ساحة القرية. ترجّل خليل، وراح ينظر إلى ما حوله. شعر بأنّ المصباح المضيء قد انطفأ، واللّوحة المتلألئة الجنبات قد بهتت ألوانها. كان واضحًا أنّ القرية الّتي عرفها صغيرًا ما عادت كما كانت، فالطّرقات التّرابيّة الضّيّقة الّتي لعب فيها طفلًا اتّسعت وأصبحت سوداء، والبيوت الصّغيرة المتقاربة

والمتلاصقة اختفى معظمها، وارتفعت مكانها أبنية عالية. حتّى الوجوه الّتي عرفها، وعلقت في ذهنه، وأبَتِ المغادرة لم تعُدْ هي نفسها. كلّ شيء تغيّر ولم يعُدْ كما كان.

كان استقبال أهل القرية لابنهم العائد مميّزًا، وبرغم أنّهم تسابقوا إلى الاحتفاء به وتكريمه، إلّا أنّه كان واضحًا أنّ شيئًا ما يشغل تفكيره... كأنّه كان يبحث عن أمرٍ ما. شعرَ بحاجة إلى أن ينفرد وينزوي بعيدًا عن المستقبلين والمرحِّبين.

سيطرت عليه رغبة فعليّة في الانفراد، لكنْ، أنّى له ذلك والمحتفون بقدومه راحوا يعبّرون عن فرحتهم بالعودة الميمونة بسيلٍ من الأسئلة عن الأهل، والإخوة، والعمل و.. و...

كان الجوّ حميمًا، وبرغم ذلك، فقد شعرَ بالغربة، فالأطفال الّذين عرفهم صغيرًا أصبحوا رجالًا ونساءً، ولم يعودوا في مثل الصّورة الّتي احتفظ لهم بها، أمّا الكبار الّذين عرفهم في ذلك العهد الطّيّب، فقد أصبحوا عجَزَةً وشيوخًا، ومنهم مَن اختفى نهائيًّا. إنّه يعرف الجميع، ولا يكاد يعرف أحدًا.

برغم أنّ معالم القرية قد تغيّرت كثيرًا، إلّا أنّه لم يكن صعبًا على خليل أن يحدّد موقع مدرسته الّتي كانت ملاصقة للبيت الّذي ترعرع فيه، فهو ما زال يذكر جيّدًا أنّهما يقعان في طرف القرية الشّماليّ، ويذكر أنّه كان يسمع صوت الجرس وهو في البيت. لم يكن يحتاج للانتقال من البيت إلى المدرسة سوى إلى ثلاث دقائق، ولولا الدّرجاتُ القليلة الموجودة أمام البيت، والحديقة الصّغيرة الممتدّة أمامه لما تطلّب الأمر سوى ثوانٍ.

ذكريات كثيرة التمعت في ذهن خليل وهو متّجه شمالًا قاصدًا ذلك المكان الّذي شهد جانبًا من طفولته.

تذكّر الغرف الثّلاث الّتي كانت تعيش فيها العائلة. إحدى هذه الغرف كانت مخصّصة لاستقبال الضّيوف، أمّا الثّانية فلوالده ووالدته، وكانت الثّالثة له ولإخوته. لم يكن أثاث المنزل فخمًا، لكنّه كان مُريحًا، أمّا الأبواب والنّوافذ فكانت كلّها خشبيّة. كان يشعر بسعادة كبيرة أيّام الشّتاءعندما تُغلَق النّوافذ والباب الخارجيّ، وتصطلي العائلة بنار المدفأة الحديديّة ذات الدّاخون الممتدّ إلى الخارج، فيما حُبَيباتُ المطر تطرق زجاج النّوافذ. في تلك اللّحظات، كان يشعر أكثر بارتباط العائلة. أمّا في الصّيف، فكثيرًا ما كان يحلو له الجلوس على الشّرفة الصّغيرة المطلّة على الحديقة. لم تكن حديقة واسعة، لكنّها كانت تضمّ أنواعًا كثيرة من الخضار، وكان فيها عدد قليل من الأشجار المثمرة. كان لها باب خشبيّ ضخم يفصلها عن الخارج. كان والده يحرص عند انتهاء السّهرة على إقفاله خوفًا من بعض الحيوانات الّتي قد تدخل الحديقة وتفتك بالدّجاجات. ما زالت صورة ذلك الباب عالقة في ذهنه. كان من الخشب السّميك، داكن اللّون، يُحدِث فتحه وإغلاقه صوتًا مزعجًا. ضخامة هذا الباب لم تكن متناسبة مع السّور المحيط بالحديقة، فهو كان عبارة عن حائط قليل الارتفاع يدور حول المنزل، ويفصل الحديقة من الجهة الشّماليّة عن ملعب المدرسة.

أوقات طويلة أمضاها خليل في ذلك الملعب، ولطالما قفز، أيّام العطلة، مع رفاق له، فوق الحائط لممارسة ألعابهم في الملعب، وبرغم أنّ الملعب لم يكن واسعًا جدًّا، إلّا أنّ أرضه كانت شبه مستوية. الجهة الجنوبيّة منه فقط كانت كثيرة التّعرّج، وفي زاوية منها كانت تقوم صخرة كبيرة لطالما اتّخذ منها الطّلّاب مقاعد لهم.

شريط طويل من الذّكريات عبر في ذهنه وهو متّجه إلى ذلك المكان. كان متلهّفًا لأن يرى ما انتهى إليه البيت الّذي باعه الوالد في ساعةٍ من يأس، وكان يمنّي النّفس بأن يرى ملعب المدرسة ويسترجع حركاته فيه وسكناته.

بلغَ المكان الّذي افترضَ أنّه الموقع الّذي كان فيه البيت والمدرسة، لكنّه أيقنَ أنّه مخطئ في تحديد المكان، فالحديقة لا وجود لها، وكذلك البيت. كلّ ما يراه بناية مؤلّفة من ثلاث طبقات. أين البيت إذًا؟ دار في المحلّة عدّة دورات.. لم يرَ ما يدلّ على أنّ المكان هو نفسه الّذي شهد طفولته... لا شكّ أنّه مخطئ في تحديد الموقع. تأمّل المكان للحظات، ثمّ اتّجه جنوبًا سالكًا طريقًا موازيًا للطّريق الّذي أتى منه... وما إن تجاوز أوّل منعطف حتّى وجد نفسه أمام الصّخرة الّتي لم تغادر مخيّلته. إنّها الصّخرة إيّاها الّتي كانت قائمة في طرف الملعب. إنّها هي. لا شكّ في ذلك. اقترب منها مسرعًا، تفحّصها.. ما زالت تضاريسها هي هي. هنا كنتُ أقعد. من هذه النّاحية أوقعتُ زميلًا يومًا فعاقبني المعلّم. على هذه النّتأة كنّا نقف لنقطف ثمار شجرة التّوت.

مرّت المشاهد سريعةً في ذهن خليل.

نظر شمالًا حيث كانت المدرسة والملعب، فإذا هما اختفيا، وقامت مكانهما بناية من عدّة طبقات. التفت جنوبًا، فإذا هو أمام مبنى فخم من طبقة واحدة يعلوه قرميد أحمر يبوح بالكثير من الإتقان. وقف مذهولًا شارد الذّهن.. أيُعقل أن أعود بعد عشرين سنةً غيابًا لأجدَ أنّ أهمّ ما يربطني بهذه القرية قد تلاشى؟ أ يُعقَل أن أفقد بمثل هذه البساطة الجذور الّتي مدّت حنيني إلى هذه الأرض بالحياة؟

جلس على الصّخرة يفكّر، يتأمّل، ويتذكّر...

تراقصَ الماضي أمام عينيه المغرورقتين بالدّموع، فبدا متموّجًا ومتلألئًا في آن.

في تلك اللّحظة فقط شعر خليل بمرور الزّمن. أدركَ أنّ اللّوحة الّتي بقيت ثابتةً في ذهنه طوال الأعوام العشرين قد لعبَت بها الأيّام، وغيّرتها السّنون. إنّه الزّمن... غدرَه وانتزع منه أغلى ما يملك.

انحدرت دمعة ساخنة على وجنتيه. همّ بمغادرة المكان، فإذا أحد أبناء القرية، من أصدقاء طفولته، منتصبٌ أمامه يسأله عمّا به. تنهّد عميقًا، ولمّا أعاد السّؤال، حمْلَقَ في الصّخرة طويلًا وقال:

إنّها طفولتي، سطا عليها الزّمن، واغتالها البشر، فلبثتُ غريبًا.

2 - البوصَلة

تتناول الرّواية قصّة عائلة لبنانيّة من بلدة الخيام الجنوبيّة. يضطرّ يوسف وأخوه يحيى إلى مغادرة البلدة والتّوجّه إلى العاصمة بيروت

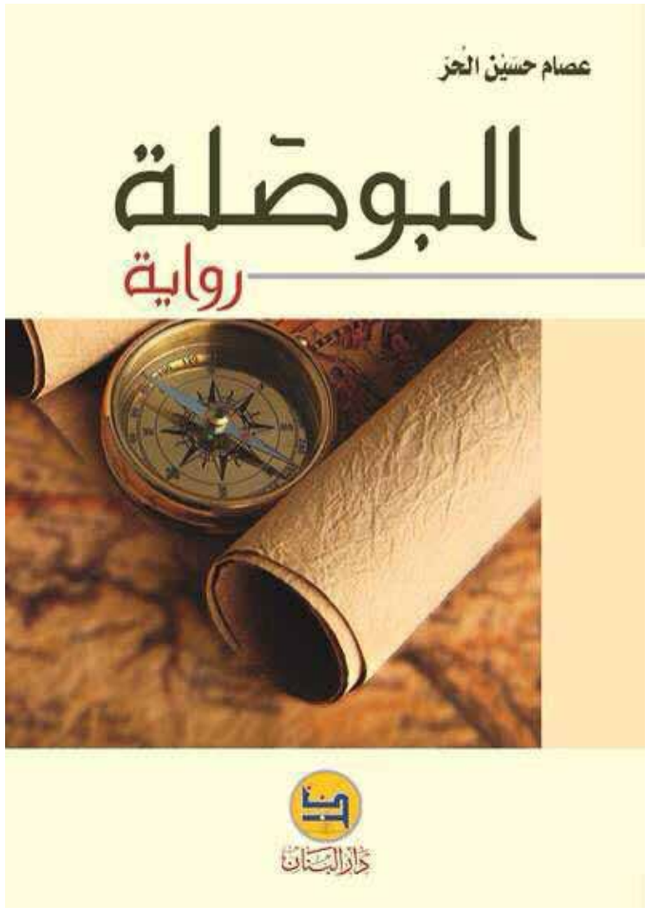

نتيجةَ ممارسات الاحتلال الصّهيونيّ ومحاولته إجبارَهما على الالتحاق بصفوف جيش العملاء. يُعتقَل الأب ويُزَجّ به في معتقل الخيام.

تنشأ قصّة حُبّ بين يوسف ونجلاء الّتي غادرت مع عائلتها بلدة الخيام لتستقرّ في بيروت. يتّجه يوسف إلى الانخراط في صفوف المقاومة. يرفض الأب زواج ابنته من مقاوم، ويصرّ يوسف على القيام بواجبه ضدّ العدوّ المحتلّ.

هل ينتصر الحُبّ على الواجب؟ أم ينهزم أمامه؟

هل يقبل الوالد بما كان مرفوضًا أم يفرض ما يريد؟

تدور أحداث الرّواية خلال الاحتلال الصّهيونيّ للجنوب اللّبناني، وتنتهي في العام ألفَين، عام التّحرير.

مشهد من الرّواية

الآن انقشعت الرّؤية أمام عينيّ، وزالت الغشاوة عن نظري.. كنتُ أعيش في عالَم من الأحلام الكاذبة الخادعة.. اعتقدتُ طويلاً أنّ العاقل هو فقط مَن يسعى لتأمين رزقه ومستقبله، وأنّ مَن يتحرّك في غير هذا الاتّجاه هو إنسانٌ ضلّ الطّريق وبحاجةٍ إلى من يُرشده وينتشله.. كنتُ أرى أنّ الشّعارات الوطنيّة القائلة بالقتال والتّحرير هي شعارات يحرّكها الصّدق، لكنّها تفتقر إلى الواقعيّة، لذا كنتُ أرى في المقاوِمين مجرّد شبّان مندفعين ساعين إلى حتفهم تحت لواء قضيّةٍ سامية من دون بارقة أملٍ تلوح في الأفق.. كانت نظرتي إلى الأمور مختلفة.. كنتُ أرى السّعادة في شهادةٍ نحملها، ومهنةٍ نمارسها، وحياةٍ هانئةٍ مطمئنّة نعيشها.. كنتُ أرى السّعادة في الشّوارع المكتظّة بعابريها، والمقاهي المزدحمة بروّادها، والسّهرات العامرة بسمّارها.. كنتُ أرى السّعادة في الابتعادِ عن المخاطر، والسّلامةِ من أنواع الأذى، والظّفر بتحقيق الأمنيات وبتجسيد الأحلام.. كنتُ أعتقدُ أنّ الحياة الهانئة لا يمكن أن تمرّ في الجنوب.. كنتُ أربط الجنوب بالموت والقهر والمعاناة.. كنتُ أشفق على المقيمين في تلك المناطق، وعلى الشّبّان الّذين يضحّون بكلّ شيء في سبيل أمرٍ بعيد المنال، وأملٍ يتلألأ كسرابٍ كاذبٍ يُرى ولا يُدرك.. كنتُ أعتقدُ أنّ الجنوب الّذي اتّجهت إليه بوصَلة جهاد المجاهدين لا يمكن أن تتّجه

إليه بوصَلة الحياة، لكنّني اكتشفتُ الآن أنّ بوصَلة الحياة لا يمكن أن تتّجه إلّا إلى هذا الجنوب المرويّ بدماء المجاهدين والمسقيّ بعرَقهم... أشعرُ بأنّ هاتفًا مجلجلًا في داخلي يُناديني لأن أعيش لذّة العطاء، يدعوني لأن أنفض عنّي كلّ أدران المادّة وسخافات القشور. تبدو لي الحياة الآن في ثوبٍ جديد، في حلّةٍ جديدة، في تلألؤٍ لم أرَه فيها يومًا. أراني الآن أمام الكنْهِ الحقيقيّ للحياة. الآن أدركُ أنّ الرّاحة الحقيقيّة قد لا نجدها إلّا في التّعب، وأنّ السّعادة قد لا نعثرُ عليها إلّا في ألوانٍ من المعاناة، وأنّ طريق الموت قد يكون أحد الأبواب المؤدّية إلى الحياة.. سأغوص إلى الأعماق لأملأ [illegible] لذّة المشـ [illegible] ـودة الحُبّ

الجامعة اللبنانية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها
الفرع الثاني

رسالة أعدت لنيل شهادة
الماستر
في اللغة العربية وآدابها

المقاومة والوجود والحدود
رواية "البوصلة" للروائي "عصام حسين الحر" أنموذجًا

إعداد:
هبة وليد الحريري
إشراف الأستاذ الدكتور:
سالم المعوش

لجنة المناقشة
أ.د. علي مجدي زيتون (أستاذ) — أ.د. إبراهيم فتحي الله (أستاذ مساعد)

بيروت
العام الجامعي 2015-2016

خلال العام الجامعيّ 2015 ـ 2016 نالت الطّالبة هبة وليد الحريري شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها، وكانت رسالتها بعنوان: «المقاومة والوجود والحدود – رواية «البوصَلة» للرّوائيّ عصام حسين الحُرّ أنموذجًا».

3 - ألوان من ثمار

سلمان وحمدان شقيقان نشآ في بيت واحد. استطاع الأوّل أن ينجح في الحياة، فكانت له مؤسّسة واسم محترم في السّوق، أمّا الثّاني فكان أقلّ شأنًا من شقيقه، وخاض تجرِبةً أسريّة متعثّرة لم يحصدْ منها سوى وحيده سعيد.

العلاقة بين الأسرتين كانت باردة. تقوم علاقة حُبّ بين خليل وزميلة دراسته مروى ابنة سلمان الّتي تتولّى إدارة المؤسّسة. تقع المؤسّسة في أزمة حقيقيّة نتيجة الظّروف الأمنيّة. يبدر من خليل ما لم يكن في الحسبان، ومن سعيد ما لم يكن متوقّعًا.

كيف تنتهي الأمور؟ هل يتغلّب الحقد؟ أم

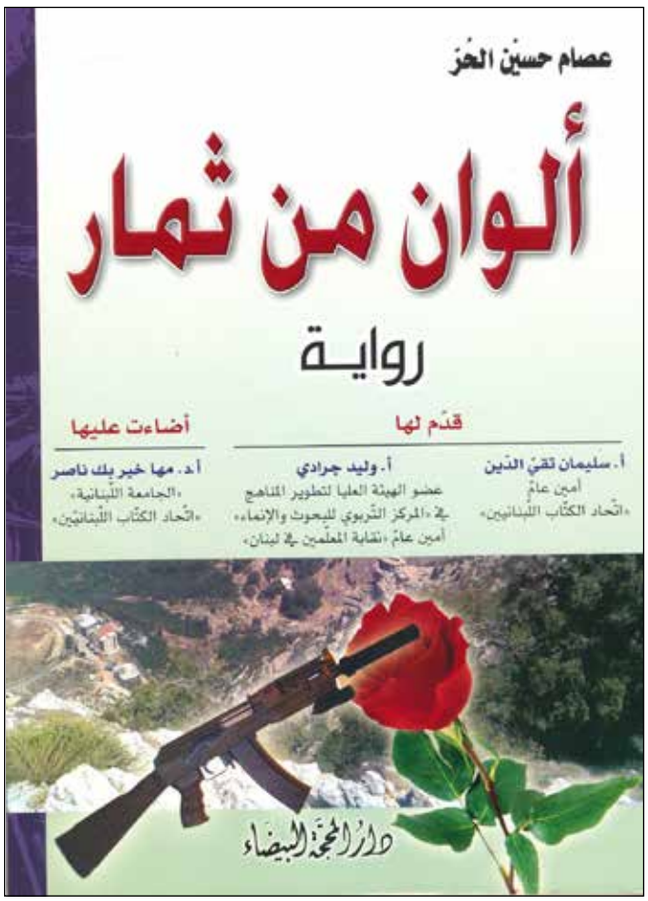

ينتصر الوفاء؟ تكتشف مروى أنّ النّاس معادن وأنّ حقل الحياة يحويّ كلّ شيء.

مشهد من الرّواية

«يا إلهي. ما الّذي يجري؟.. لا أستطيع أن أتصوّر الدّرك الّذي بلغته الماديّة المتحكّمة في هذا المجتمع. يتحدّث أحدهم فتحسبه ملاكًا. ينظّر فتُعجَب بما يحمله من مفاهيمَ وقيم، تختبره في موقفٍ، أو في أزمة، فإذا هو النّقيض لِما حسبتَه واعتقدتَه. لا أدري إن كنّا نعيش في مجتمع بشريّ أو بين ذئاب. لا أدري كيف أصف هذا المجتمع الّذي نعيش فيه. الكلّ يتحدّث عن القيم، عن المبادئ، وعن المُثُل. لكنّها تحوّلت عند الكثيرين إلى عناوين. عناوين فارغة ليس لها أيّ مضمون. عناوين تزيّن واجهات تختبئ خلفها النّفوسُ المريضة، والمواقفُ الوصوليّة، والأطماع المبرَّرة وغير المبرَّرة. كنتُ أعتقد أنّني إنسانة مثقّفة أستطيع أن أواجه شؤون الحياة وشجونها. سيطر عليّ هذا الاعتقاد بقوّة. سيطر عليّ بقوّة حتّى إنّني اعتقدتُ أنّني أستطيعُ أن أفكّر عن الآخَرين، وأن أتّخذ القرارات عنهم، وأن أقيّمهم من دون أن أقع في الخطأ. الآنَ أدركُ أنّ الحياة أكثر تعقيدًا ممّا اعتقدتُ، وأنّ العلاقاتِ البشريّةَ فيها من التّشابكات ما لا يمكن أن يستوعبه إنسان قابع على كرسيّ خلف مكتب. الحياة العمليّة هي المحكّ الّذي تُكتشَف به الحقائق. الإنسان الّذي يحاول الحصول على الحقائق من صفحات الكُتب، ومن بطون الدّراسات والأبحاث، يبقى إنسانًا قاصرًا يمكن أن توقع به أيّة تجربة. عالَم التّنظير جميل. جميل لأنّه مثاليّ، لكنّه عندما يسلك طريق الواقع يتغيّر واقعه وتتبدّل طبيعته. التّنظير لا يتطلّب سوى الكلام، والكلام رخيص، بل مجّانيّ، لا يتطلّب أيّة تضحية. العمل هو الّذي يتطلّب التّضحية، لذا، لا تنكشف الحقائق إلّا عند الممارسة. الآن أدرك أنّ ظاهر الأشياء غير باطنها. الآن استوعبتُ أنّ العينين لا تكفيان وحدهما للرّؤية الصّحيحة. الآن صارت الأمور أكثر وضوحًا، لكنْ، بعد فوات الأوان، بعد الوقوع في دوّامة النّدم، وهل ينفع النّدم؟ هل ينفع إحياء اللّيل في التّفكير في ما كان وما سيكون؟ يا إلهي. العتمة شديدة، واللّيل طويل طويل. تبدو السّماء مظلمة معتمة وكأنّها قد ابتلعت نجومها. حتّى الأفق ضاع بين السّماء والأرض. يبدو المدى الممتدّ أمامي مساحةً من سواد. أكاد أسمع ضربات قلبي تقرع كياني بعُنف. أين أنتَ أيّها النّوم؟.. أين شردتَ فغبت عن عينيّ وتركتني أعاني في شوقي إليك ما أعاني؟.. السّاعات تمرّ بطيئةً بطيئة.. الدّقائق تقرّبني من الفجر، لكنّ الفجر يختبئ خلف ساعاتٍ طوال لا تكاد تتزحزح أو تتحرّك. يا إلهي. ما هذا الجمود الّذي يحاصرني؟.. أَ هو الزمن قد توقّف عن الحركة؟!.. أم هي الحركة نفسها قد أصابها الجمود ففرض عليها نواميسه؟.. لا أدري ما الّذي جرى ويجري...»

4 - خيمتان وغرسة

الحياة موجات تتلاحق. الأجداد يظلّلون ببركتهم الآباء، والآباء يظلّلون الأبناء والأحفاد. يستمرّ الأهل مظلّاتٍ واقيةً للأبناء، لكنّها

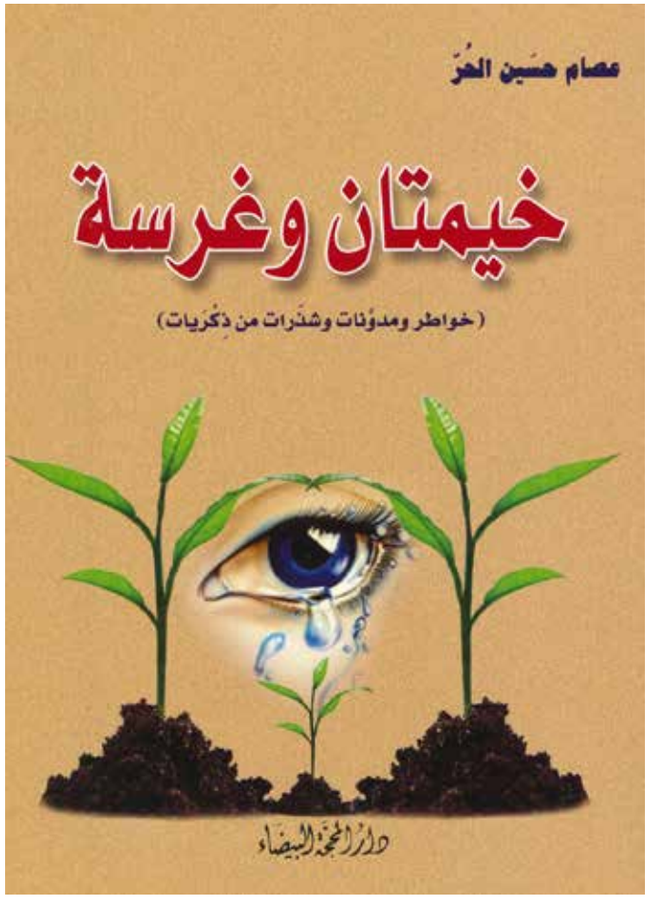

مظلّاتٌ لا تدوم، وتستمرّ الحياة، وتنتقل الأدوار من سابقٍ إلى لاحق...

كتاب يمزج بين السّيرتين الذّاتيّة والغيريّة، فيه قدْرٌ من الوفاء، وجانبٌ من الذِّكْرَيات، وخواطرُ تستدعي مَشاهدَ وتسترجع مواقف، وتبوح بشيءٍ ممّا يعتمل في الصّدر من عواطفَ ووجدانيّات.

نصّ من الكتاب

.. في تلك اللّيلة لم أطقْ في البيت بقاءً، فكلّ شيء فيه كان يثير فيّ الذّكرى، ويدفعني إلى البكاء. خرجتُ خلال فترة السّهرة من المنزل بعدما أعربتُ لوالدتي عن رغبتي في أن أمضي بعض الوقت على شاطئ البحر. هناك أطلقتُ لدموعي العنان. في تلك اللّيلة، وبعدما عدتُ إلى نفسي، وانفردتُ بوحدتي، شعرتُ بقوّةٍ بالفراغ الّذي تركه الوالد. شعرتُ بأنّ كلّ كلمات المؤاساة وعبارات العطف الّتي سمعتُها من الأهل والأقارب والأحبّة والأصدقاء وقفَ مفعولها، وجمدَ تأثيرها، عند حدود تلك اللّيلة. في تلك اللّيلة عبرَت في ذهني مَشاهدُ ومشاهد، وتحرّكت أمام عينيّ صُوَرٌ وصُوَر. كان طيف الوالد رفيقي في تلك الأمسية. رافقني في كلّ خطوة خطوتُها، وفي كلّ حركةٍ قمتُ بها.

بدا لي مشرقَ الوجه، باسمَ الثّغر. رأيتُه يتابعني بنظراته، ويرعاني بحنانه. سمعتُه يطلب منّي أن لا أبكي. أن أكون أقوى ممّا حصل. أن أفتح صدري للحياة، وأن أستمرّ في خوض غمارها. أن أكونَ، كما أرادني، صلبًا في مواجهة قسوة الظّروف وصعوبتها. أن أطمئنّ إلى أنّه سيكون دومًا إلى جانبي، ولن يبتعد عنّي. شعرتُ بأنّه قريب منّي لدرجة أنّه يكاد يحتضنني، يغمرني. بل يكاد يمسح بيده الحانية الدّموع من عينيّ اللّتين اختلط فيهما الواقعُ بالخيال، والماثلُ بالظّلال. حضرَت في ذهني جوانبُ من نصائحَ كان يردّدها أمامي قبل وفاته. نصائح تلفّعت بأصداء من صوته رنّت في أُذنيّ وأنا أبكي غيابه. تخيّلتُه، بل سمعتُه يقول لي: كنتُ أرغبُ في أن أبقى بجانبك، أن أكونَ معك، أن أرافقَك في دروب الحياة الوعرة. لكنّه القدر قال كلمته، إنّها إرادة الله عزّ وجلّ. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. لا تحزنْ ولا تكتئبْ. الحياةُ أمامك طويلة، والمعركة قاسية، والآمال الّتي أعلّقها عليك كبيرة. أريدك أن تكون على قدّ الحمْل. إخوتك ما زالوا صغارًا.

الهَمّ الّذي تحمله والدتك كبير، والمسؤوليّة عظيمة. أمّـكَ لا تشكو، ولا تتبرّم، ولا تطلب. لا تنتظرْ منها أن تطلب منك شيئًا. عادتُها أن تكبت حزنها في قلبها. عادتها أن تضحك أمامكم فيما قلبها يبكي. كن شريكها في حمل المسؤوليّة. كن إلى جانبها. كنتُ سعيدًا بوجودي إلى جانبكم ووجودكم إلى جانبي. كان يمكن أن تكون سعادتي أكبرَ لو قُدِّر لي أن يطول بقائي بينكم، وأدركُ في الوقت نفسِه أنّك كنتَ تتمنّى أن تطول حياتنا معًا أكثر. لكنْ. تأكّدْ أنّني كنتُ معكم وسأبقى معكم. سأبقى معكم جميعًا. معَك، مع إخوتك، وكذلك مع والدتك. أنتم رصيدي في هذه الحياة. لن أتركَكم ولن أبتعد عنكم، وسأستمرّ في الدّعاء لكم بكلّ خير. لا أريد أن أراك باكيًا. دموعك تحرقني. بكاؤك يؤذيني. كن قويًّا وتوكّلْ على ربّ العالمين. سرْ في دروب الحياة بعزمٍ وأمل. بالأمس كنتَ صغيرًا ألاعبُك وأداعبُك. بالأمس كنتَ صغيرًا أنظرُ إلى وجهك الصّغير فأتخيّلك رجلًا ذا مسؤوليّات. لم يخطرْ في بالي أنّك ستحمل المسؤوليّة قبل الأوان. كنتُ أعتقدُ أنّني سأحظى برؤيتك تحمل الشّهادات. كنتُ أحلم بأن أرى سامي رجلًا ومصطفى شابًّا. حسبتُني سأرى سامية عروسًا. أمّا نجوى فكنتُ أرجو أن أعوّضها عمّا عانته في صغرها من ظروف صحّيّة صعبة. لم أتصوّرْ أنّ مغادرتي ستكون بمثل هذه السّرعة، ومع ذلك، أعود فأقول لك إنّ الحياة أمامك. سرْ في طريقها، واسلكْها بما يُرضي الله تعالى وضميرك. كن لإخوتك الأب والأخ، وسيكون رضاي عليك ورضى والدتك أحد أسلحتك فيها.

في تلك اللّحظات الّتي لن أنساها شعرتُ كم هو قريب قريب برغم لوعة الفراق، وكم هو حاضر حاضر برغم قسوة الغياب!..

5 - خلف المخمل

أبو رشدان ضابط كبير في القوّات المسلّحة. رُقّي وتولّى رئاسة المحكمة العسكريّة. ابنته ليال طالبة جامعيّة. مجدي متموّل ناجح يخوض مجال التّجارة ويُنشئ شركاتٍ ومؤسّسات.

تنشأ علاقة إعجاب بين مسعود وليال، وتكاد تتحوّل إلى علاقة رسميّة، لكنّ أبا رشدان يرفض بشدّة مثل هذا الزّواج، إذ لا يُعقَل أن تتزوّج ابنته من جنديّ يعمل سائقًا لديه.

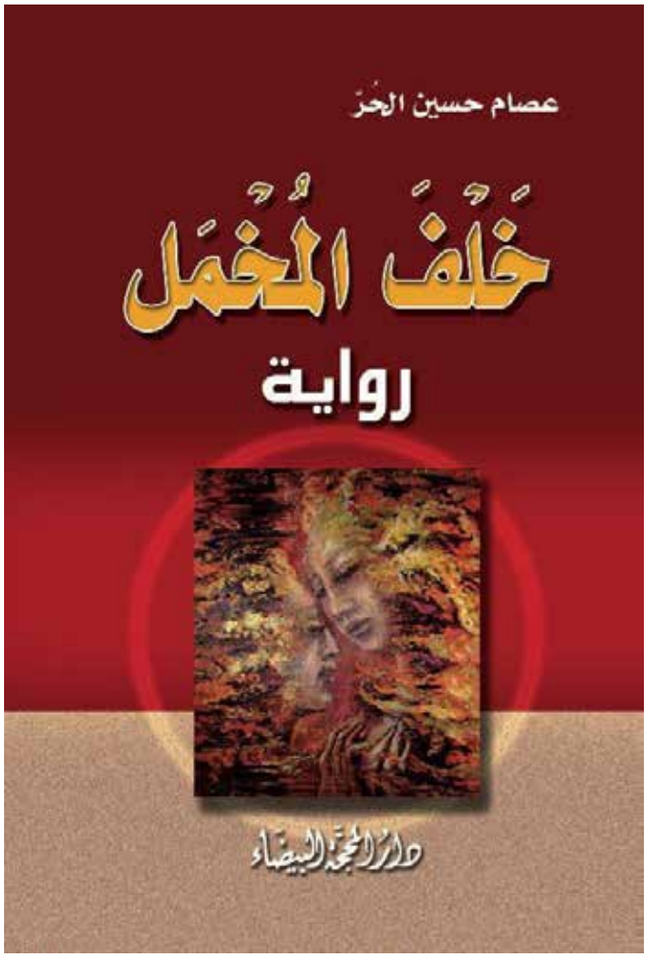

تدور الأحداث، وتتزوّج ليال من مجدي الّذي أتاح لها أن تعيش حياةً باذخة وتتواصلَ مع كبار طبقات المجتمع.

يُفاجَأ أبو رشدان بما لم يكن متوقّعًا. يكتشف أنّ الحياة الباذخة يحتجب وراءها ما وراءها. يجد نفسه في موقف صعب جدًّا، ويغرق في دوّامة من عصف الضّمير.

ما هو هذا الموقف؟ وما طبيعته؟ وكيف تنتهي الأمور؟

مشهد من الرّواية

«بالرّغم من أنّ رحلة الصّباح والمساء بين المنزل والجامعة تحوّلت إلى حركة روتينيّة، إلّا أنّها في الفترة الأخيرة بدأت تأخذ بُعدًا مختلفًا. تحوّلَ حديث ليال مع السّائق مسعود إلى طقسٍ يوميّ. كانت أحاديثُهما تدور حول شؤون الحياة المختلفة.. الدّرس والتّحصيل.. العمل والبطالة.. العلاقات بين البشر..الحُبّ والكراهية.. والأخذ والعطاء... كانت تسعد بتلك الأحاديث، وكانت تشعر في كلّ مرّة بأنّها تكتشف جانبًا آخَر من جوانب شخصيّة مسعود. إنّه شخصيّة متميّزة. قسَتْ عليه ظروف الحياة، لكنّه لم يستسلمْ لها. أبعدَته تلك الظّروف عن الهدف الّذي كان يطمح إليه، إلّا أنّه استطاع أنْ يُحِلَّ محلّه هدفًا آخَر. وفوق هذا وذاك، له فلسفته الخاصّة في الحياة، وله نِظرته الخاصّة إليها... كنتُ أنظرُ إلى مسعود على أنّه مجرّد سائق يعمل في خدمة والدي.. بل لم أكنْ أُعيرُه أيّ اهتمام.. كنتُ في قرارة نفسي أشعرُ بأنّني في قِمّة الهرَم الاجتماعيّ وأنّه في القاع. في أحيانٍ كثيرةٍ كنتُ أتجنّبُ خوْضَ حديثٍ معَه لأنّ مثل هذا الأمر لا يليقُ بي، ولا بمركز والدي. كنتُ أعتقدُ أنّ كُلّ الّذين لم تُتِحْ لهم الحياة أن يتبوّؤوا مراكز عُليا في المجتمع هُم بالفعل لا يستحقّون أن يكون لهم موقع في الحياة الاجتماعيّة. الآن، تغيّرت الصّورة عندي. أنا الآن أُدرِكُ أنّ كثيرين يستحقّون أكثر بكثير ممّا حازوا في هذه الحياة، ومع ذلك، فهم في آخر السُّلَّم الاجتماعيّ. مسعود هو من هذه الفئة من النّاس. إنسان مثقّف. واعٍ. يُدرِكُ تمامًا موقعه، كما يعي تمامًا الهدف الّذي يسعى إليه، ومع ذلك، فإنّ الموقع الّذي يحتلّه لا يكاد يُنظَر إليه. إنّه في عيون النّاس مجرّد سائق، ومجرّد جنديّ لا يحمل أيّة رتبة...»

الجامعة الإسلامية في لبنان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الدراسات العليا
شعبة اللغة العربية وآدابها

IUL

المكان وإشكالية الانتماء في رواية
"خلف المخمل" لعصام الحر

رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها
إعداد: دلال أسعد شحرور

أعضاء اللجنة المناقشة:
أ.د. مها خيربك — مشرفة ورئيسة
أ.د. خليل أبو جهجه — قارئا أول
د. غادة علوه — عضوًا

بيروت 1440هـ / 2019م

خلال العام الجامعيّ 2018-2019 نالت الطّالبة دلال أسعد شحرور شهادة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها، وكانت رسالتها بعنوان: «المكان وإشكاليّة الانتماء في رواية «خلف المخمل» لعصام الحُرّ».

6 - ثرثراتٌ على رصيف الزّمن

لارا، هنادي، وديالا... ثلاث نساء خضن تجارِبَ زوجيّة مختلفة، الجامع المشترك بينها أنّها كانت فاشلة، وأنّها انتهت بهنّ إلى ذلك المكان المظلم الّذي عزلهنّ عن حركة مرور الزّمن.

ما هي طبيعة المشكلة الّتي وقعت فيها كلٌّ منهنّ؟ ولماذا انتهى بهنّ الأمر إلى ذلك المكان؟ وعلى من تقع المسؤوليّة؟

الرّواية تطرح مشكلة اجتماعيّة حقيقيّة...

مشهد من الرّواية

«.. نعم. تزوّجنا، وأُقيم حفلُ زفافٍ لا مثيل له.. خلال الحفل، كان الجميع مِن

حولي يضحكون، ويبتسمون لي ويصفّقون ويرقصون، أمّا أنا فكنتُ أحبسُ دمعةً تكاد تطفر من عينيّ. بدا لي بوضوح أنّني أخطو الخطوة الأولى على طريقٍ لا أعرف إلى أين يقودني. أقول بحقّ إنّني شعرتُ بأنّني كالنّعجة الّتي يَحتفلُ مَن حولها بالتّضحية بها. في تلك اللّحظات ارتسمَت أمام ناظريّ مراحلُ مفصليّةٌ من حياتي. تذكّرتُ حفل التّخرّج الّذي أقامته المدرسة لي ولزملائي من الطّلّاب والطّالبات عندما أنهينا دراسة المرحلة الابتدائيّة. كانت فرحتنا آنذاك لا توصف.. يومها شعرتُ بأنّ أبواب الحظّ قد انفتحت أمامي دفعةً واحدة. شعرتُ بأنّني اجتزتُ المرحلة الأولى من طريق النّجاح الطّويل المُوصِل إلى ما أصبو إليه من أهدافٍ كبار. المشهد تكرّر عندما نلتُ الشّهادة المتوسّطة. يومها تأخّر حفلُ التّخرّج لأنّ البلد كان منشغلًا بالانتخابات النّيابيّة، وعندما أُقيم الحفل كانت نتائج الشّهادة الرّسميّة قد صدرت، وكنتُ من المتفوّقين. يومها، تلقّيتُ التّهاني على نجاحَين، نجاحي في الشّهادة المدرسيّة، ونجاحي في الشّهادة الرّسميّة، وكان والدي فخورًا جدًّا بتفوّقي في الشّهادتين كلتيهما. أذكرُ أنّ إحدى السّيّدات القريبات قالت لي «إن شاء الله نهنّئكِ بفرحتكِ»، فما كان من والدي إلّا أن وجّه إليها نِظرة فيها شيء من العتب، وقال «فرحتها يوم تنال شهادتها الكبرى في الاختصاص الّذي تختاره، وبعدها لكلّ حادث حديث». كلام والدي لتلك السّيّدة جعلني أعقدُ العزم أكثرَ من ذي قبل على أن أتابع دراستي حتّى النّهاية. كانت الأحلام الكبرى تلمع في ذهني بقوّة. رأيتُ نفسي أقف على مسرح إحدى

الجامعات وأنا أتسلّم شهادتي العُليا وسط فرحة الأهل وتصفيق المصفّقين. كان طموحي كبيرًا إلى أبعدِ الحدود. مرّ هذا الشّريط سريعًا في ذهني وأنا أتلقّى تهاني المهنّئين. لا أبالغ إذا قلتُ إنّ هذا الشّريط أذهلَني عن كلّ ما حولي، فتحوّلَت ردودي على تلك التّهاني إلى لازمةٍ ردّدتُها بشكلٍ آليّ من دون أن أميّز بين الأشخاص العابرين أمامي...»

7 - قلبٌ في قبضة الزّمن

نصري شابّ تحمّله الأيّام المسؤوليّة في سنٍّ مبكرة. يقع في حُبّ الفتاة منتهى.

يسعى جاهدًا إلى تحسين وضعه الماليّ كي يتمكّن من طلب يدها. يعمل في أكثرَ من مجال، ويخوض أكثرَ من تجربة في ميدان العمل.

كان يسابق الزّمن ليصل إلى وضعٍ يمكّنه من الوصول إلى مبتغاه والفوز بمنتهى.

هل يتمكّن من تحقيق ما يريد؟ هل تبتسم له الأيّام؟

رواية تنطق بلسان الكثيرين من أصحاب الحالات الاجتماعيّة الصّعبة.

مشهد من الرّواية

«خرج نصري مرتاحًا... من الواضح أنّ الخواجة رجا راضٍ تمامًا عن التّرجمة الّتي أنجزتُها... معنى ذلك أنّ عملي في التّرجمة سيؤتي الثّمار الّتي أرجوها.. كنتُ أخشى أن لا يكون عملي في المستوى المطلوب، لكنّ الكلام الّذي قاله الخواجة رجا يؤكّد أنّي نجحتُ في المهمّة الّتي اضطلعتُ بها. أشكر الله تعالى

على هذا الإنجاز. سأبذل جهدي كي أقدّم أكبر عدد ممكن من التّرجمات في الشّهر الواحد. سأخصّص كلّ الأمسيات للتّرجمة، وسأحاول أن أُنجزَ مقالات المجلّة وتحقيقاتها خلال الدّوام. كم هو رائع شعوري في هذه اللّحظات!.. لقد انفتح أمامي المجالُ واسعًا كي أحقّق ما أصبو إليه. سأقوم مع الوالدة قريبًا، وخلال أيّامٍ قلائل، بزيارة أبي ماهر. سنطلبُ يد ابنته منتهى. الآن أستطيع أن أعِدَ وأن أفيَ بوعدي. إذا استمرّ عملي مع الخواجة رجا فسأتمكّن من أن أخطو خطواتٍ عمليّة واثقة على طريق الاستقرار الحياتيّ الّذي أَنشدُه. لن يؤثّر ذلك على التزامي تجاه والدتي، وكذلك تجاه إخوتي. سيستمرّون في دراستهم،.. سيبلغون الصّفوف العُليا، وسينالون الشّهادات. سأتمكّن

من تحقيق رغبة المرحوم والدي. وفي الوقت نفسه، سأرضي والدتي، وسأحقّق رغبتها بأن أتزوّج. لقد انفتحت أمامي دروب السّعادة الّتي شعرتُ في يومٍ من الأيّام بأنّها بعيدة المنال. في هذه اللّحظة، يعبر أمامي قطار الذّكريات. أتذكّر ما مرّ معي منذ أن كنتُ طفلًا. كنتُ أعيش سعيدًا في ظلّ أبوّةٍ حانية، وأمومةٍ عاطفة. كنتُ أطلبُ فأجدُ ما أطلبه حاضرًا. كنتُ أشعر بالسّعادة عندما أحقّق نتيجة جيّدة في دراستي. كنتُ أشعر بالسّعادة لأنّ هذه النّتيجة ستُسعِدُ والديّ. اعتقدتُ يومها أنّ الحياة كلّها ورود ورياحين. اعتقدتُ أنّني سأستمرّ في ما أنا فيه إلى ما لا نهاية. كنتُ أنتظرُ حلول العيد لأنّني سأرتدي وإخوتي ثيابًا جديدة. كنتُ أفرحُ بالثّياب الجديدة، ولم أفكّرْ يومًا في كيفيّة تأمين والدي لها. عرفتُ متأخّرًا أنّه كان في غالب الأحيان يستدين ليشتريها. كانت تلك الأيّام أيّامًا سعيدة لم أفكّر خلالها في الغد. لم أفكّر في أنّ للأيّام دورتها وتقلّباتها. لم أفكّر في شيءٍ من هذا. كنتُ أرى يومها أنّني سأتمكّن بسهولة من اجتياز الصّفوف، ونيل الشّهادات، والوصول إلى ما أحلم به من درجات علميّة، ومن مواقعَ وظيفيّة. اعتقدتُ يومها أنّني سأحظى بكلّ ما أحتاج إليه بسهولةٍ ويُسر، وأنّ الخيمة الّتي تظلّلني ستستمرّ فوق رأسي إلى الأبد. تراءت لي الحياة في تلك الأيّام نزهةً ممتعة ليس فيها سوى الخضرة والجَمال. تراءت لي سهلًا ممرعًا ليس لي إلّا أن أجني منه ما لذّ وطاب من ثمار. تراءت لي حقلًا خصيبًا يفيض عليّ بالحُبّ والحنان يجود بهما أبٌ حنون وأمٌّ عطوف. لم يخطر في بالي آنذاك أنّني سأضطرُّ للتّخلّي عن طموحاتي وأحلامي. لم يخطر في بالي أنّ الدّهر الّذي يُضحِك قد يُبكي. لم يخطر في بالي أنّ الأيّام دائمة الجريان، وأنّها لا تستقرّ على حال. اعتقدتُ أنّني سأتمكّن من رسم مستقبلي وَفق ما أريد وأشتهي. اعتقدتُ أنّ اجتهادي في الدّراسة سيفتح أمامي الباب واسعًا أختار الاختصاص الّذي أريد من دون أن تقف أمامي أيّة عقبات. ارتسمت في ذهني أحلامٌ لامعة دغدغت خيالي، وأهداف كُبرى حفّزتني على أن أسعى إلى تحقيقها. كنتُ غارقًا في أجمل الرّؤى والتّصوّرات بخصوص المستقبل والهدف الّذي أنشده، عندما استيقظتُ ذات صباح على واقع جديد لم أكنْ أحسب له حسابًا. استيقظتُ على حقيقةٍ مُرّة صفعتني وزلزلت كِياني. استيقظتُ على حدَثٍ انتزعني من بقعة الضّوء الّتي حسبتُ أنّها لن تنطفئ. لقد تُوُفِّيَ والدي. تُوُفِّيَ وترك لي ثلاثة إخوة صغار، ما زالوا في بداية تحصيلهم العِلميّ، ووالدة اسودّت الدّنيا في عينيها، وتعلّقَ قلبها بي مُنقِذًا لصِغارٍ يحتاجون إلى مَن يرعاهم. تُوُفِّيَ والدي وترك لي الأحلام الّتي عاش لأجلها. تُوُفِّيَ وترك لي أن أسعى في دروب الحياة لأحقّق ما كان يمنّي النّفس بتحقيقه. توفّيَ لأجد نفسي مستوحشًا في ظلمة الحياة باكيًا العاطفة الّتي غمرتني لسنين. توفّيَ تاركًا لي أن أواسي أُمًّا عظيمة فُجِعت برحيله، وأصرّت على أن تدفن حزنها في قلبها، وعلى أن تكون لي الأمّ والأب. ترك لي أمًّا كانت لي الواحة الخضراء في صحراء الحياة المقفرة. ترك لي أمًّا وقفت بقوّةٍ إلى جانبي، وبذلَت المستحيل كي تساعدني في

متابعة مشوار الحياة. بذلَت المستحيل كي تُشعرني بأنّ الحياة لا بدّ أن تستمرّ. أرادت أن تزرعَ فيَّ السّعادة برغم أنّ السّعادة فارقتها وتخلّت عنها. ومع ذلك، لا أستطيع أن أُنكر أنّه بوفاة والدي، انقلبت الدّنيا في نظري رأسًا على عقب. السّعادة تحوّلت إلى حُزن مُقيم، والشّباب المُطِلُّ برأسه انقلب مسؤوليّةً مبكرة كان عليّ أن أحملها، وأن أكون على قدر تبعاتها. يومها، أظلمت الدّنيا في عينيّ. شعرتُ بأنّ كلّ شيء قد تحوّلَ نحو الأسوأ، إلّا أنّني لم أستسلم لأنّني أردتُ بإصرار أن أكمل الرّسالة الّتي بدأها المرحوم الوالد. لم أستسلم لأنّ الوالدة كانت الملاك الحارس الّذي أبقى الأمل فيّ متوهّجًا، وحرصَ على أن يقف إلى جانبي في كلّ صغيرة وكبيرة. أجل. لم أستسلمْ. اضطررتُ لأن أعمل وأتابع دراستي في الوقت نفسه. تخلّيتُ عن طموحاتي الكبرى. تخلّيتُ عن الاختصاصات الّتي تتطلّب وقتًا وكلفةً ماليّة...».

8 - همَسات صاخبة

هي همسات لا يرتفع لها صوت. لكنّها تعبّر عن صخب في النّفس ناتج عن معاناةٍ هنا، أو عن فرحةٍ هناك، أو عن تفاعُلٍ مع واقعٍ هنالك. إنّها كالوجبات السّريعة، لا ترهق قراءتها، بل تحمل شيئًا من التّرويح عن النّفس، ومن التّنفيس عن ضيق، في ظلّ أزمات بلدٍ معذّب، وصراعات عالَمٍ يحكمه الجنون، وضغوطاتٍ حياتيّة متصاعدة، ومواقف مُضحكة مُبكية، وكما نعلم، شرّ البليّة ما يُضحِك.

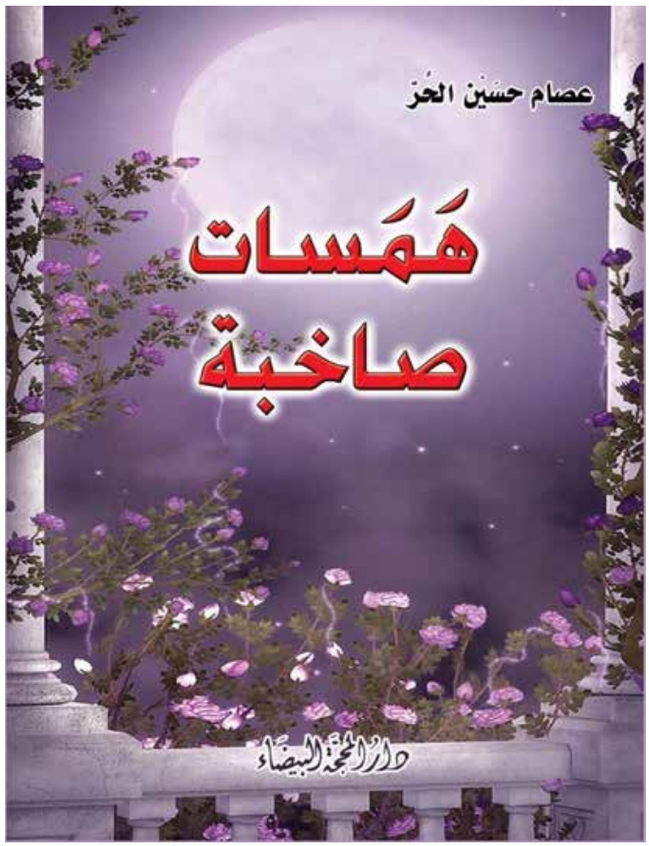

نصّان من الكتاب

أ.– لستُ مختصًّا في العلوم السّياسيّة، ولستُ خبيرًا في الشّؤون الاقتصاديّة والاجتماعيّة، لكنّني أزعم أنّ لي نظرةً إلى طبيعة العلاقة الّتي يجب أن تقوم بين الدّولة والمواطن، وهي علاقة على درجة عالية من الأهمّيّة لأنّها الرّكيزة الأساسيّة الّتي تحدّد مدى قوّة الدّولة أو ضعفها.

بحسب مفهومي لهذه العلاقة، أرى أنّ الدّولة هي بمثابة الأب، وأنّ المواطنين هم الأبناء، وكما أنّ ربّ الأسرة هو المسؤول عن أفرادها، كذلك الدّولة مسؤولة عن مواطنيها. ومن باب التّوضيح، أقول إنّه كما على الوالد في الأسرة أن يؤمّن لعائلته الطّعام والشّراب والسّكن والطّبابة والعِلم والحماية من مفاجآت

الزّمن، كذلك على الدّولة أن تؤمّن لمواطنيها كلّ هذه الأمور، وكما على الأب أن يتعامل مع أولاده بمنطق المساواة من دون أن يفرّق بين ولدٍ وآخر، وإلّا خلق بينهم نوعًا من العداوة أو الخصومة أو النّفور، كذلك، على الدّولة أن تتعامل مع مواطنيها بمنطق المساواة والعدالة من دون تمييز بين مواطن وآخر أيًّا كان نوع هذا التّمييز، وإلّا كانت النّتيجة وخيمة، وربّما مدمّرة.

هكذا أنظرُ إلى طبيعة العلاقة الّتي يجب أن تقوم بين الدّولة والمواطن، ولكي تتمكّن الدّولة من القيام بدورها تجاه هذا المواطن، كان مبدأ فرض الضّرائب والرّسوم المباشرة وغير المباشرة، وهنا، يُختصَر الأمر بمعادلةٍ بسيطة تقوم على مبدأ أساسيّ يمكن إيجازه بجملةٍ واحدة: من المواطن الضّرائب ومن الدّولة الخدمات. وإذا أردنا أن نفسّر هذه المعادلة، نقول إنّ على المواطن أن يدفع ما تفرضه عليه القوانينُ من ضرائبَ ورسوم على مختلف الصُّعُد: ضريبة الدّخل، ضريبة سير، ضريبة على المحروقات، ضريبة الأملاك المبنيّة، رسوم الماء، رسوم الكهرباء، رسوم الهاتف، رسوم بلديّة، رسوم جمركيّة.. إضافةً إلى الضّريبة الجامعة المانعة السّيّئة الذّكر، عنيتُ بها ضريبة القيمة المضافة (TVA)... إلى ما هنالك من ضرائب ورسوم تطال معظم مجالات الحياة، وبالمقابل، من حقّ المواطن أن يحصل على الخدمات الّتي تؤمّن له حياةً كريمة، ومن هذه الخدمات السّكنُ اللّائق، التّعليم، الطّبابة، فرص عمل، الماء، الكهرباء، وسائل النّقل، شوارع صالحة، الشّيخوخة... وهي خدمات أساسيّة لا غنى عنها في أيّ مجتمع متقدّم، بل في أيّ مجتمع يتمتّع القيّمون عليه بحدٍّ أدنى من الوعي والمسؤوليّة.

هذه الخدمات، عدا كونها تؤمّن للمواطن حياةً لائقة وكريمة، تضمن أمرًا آخر أكثر أهمّيّة، وهو أنّها تمتّن العلاقة بينه وبين الدّولة، فيقوى ولاؤه لها، ويشعر بأنّ الضّرائب والرّسوم الّتي يدفعها لا يدفعُها سُدى، وإنّما يؤدّيها مقابل ضماناتٍ تُقدَّم له، تمنحه الارتياح إلى حاضره والاطمئنان إلى مستقبله، ولهذا، تغدو تأدية واجباته تجاه دولته أمرًا مقبولًا، ومستحَبًّا، ومطلوبًا. لكنّ ما هو قائم عندنا يكاد يكون النّقيض لِما ذكرنا، فالضّرائب تتلاحق وتتتالى، وكلّما عرضت أزمة ماليّة، كان الحلّ الأمثل لدى المسؤولين باللّجوء إلى رفع ضرائب ورسوم قديمة، وربّما استحداث ضرائب جديدة، وهنا يجد المواطن نفسه ينوء تحت أعباء هذه الضّرائب والرّسوم من دون أن يحصل بالمقابل على أيٍّ من الخدمات المذكورة على الوجه الصّحيح والسّليم، فالرّواتب ضئيلة، والمعيشة غالية وإلى ارتفاع، وفي الوقت نفسه، الكهرباء مقنّنة، المياه ملوّثة وشحيحة، الشّوارع والطُّرُق محفَّرة، السّكن غير مؤمَّن، ومشاريع الإسكان (إذا صمدت) مُكلفة وتحتاج إلى عُمر بكامله لسداد قروضها، التّعليم الإلزاميّ والمجّانيّ غائب، الطّبابة مرتفعة الكلفة، والضّمانات الصّحّيّة محدودة جدًّا ولا تحول دون الإذلال وربّما الموت على أبواب المستشفيات، النّقل العامّ شبه غائب، ضمان الشّيخوخة مشروع

طالت إقامته في الأدراج ولا ندري متى يكون الإفراج... باختصار، الخدمات الأساسيّة غائبة أو شبه غائبة، وإذا وُجدت، فليس هناك من خدمةٍ تؤدّى بالشّكل الأمثل ووَفق ما يجب وينبغي.

هذا الواقع يُشعر المواطن بأنّ ما يدفعه من رسوم وضرائب يذهب هباءً، ومن دون أيّة فائدة أو منفعة تُرجى، وبالتّالي، فإنّه ينظر إلى هذه الضّرائب والرّسوم على أنّها سلبٌ لحقوقه واعتداء على ما يملك، وعلى ثمرة تعبه من دون مقابل ومن دون وجه حقّ، وهذا ما يُضعِفُ ولاءه للدّولة، فتكثر عنده محاولات التّهرّب من دفْع ما يتوجّب، وهي محاولات قد يعتبرها الكثيرون نوعًا من حفظ الحقوق لا تهرّبًا من تأدية واجب.

يُضاف إلى كلّ ما تقدّم آفّةٌ خطيرة، وهي المحسوبيّات، فالتّعيينات والتّوظيفات تتمّ في الغالب انطلاقًا من ولاء المواطن لهذا الزّعيم أو ذاك، وعليه، فمن لا غطاء له لا فرصة حقيقيّة له في الحصول على وظيفة أو الظّفر بمنصب، وهذا ما يزيد من شعور المواطن بالغربة في وطنه، ويُضعِفُ ولاءه لدولته، والنّتيجة الطّبيعيّة لهكذا وضْع هي تغليب الولاء لزعماء المذاهب والطّوائف على الولاء للوطن، والأمر الخطير الّذي يترتّب على ذلك شهدناه، ولا نحتاج إلى مَن يُرشدنا إليه، وإذا أضفنا إلى ما تقدّم ذكرُه مَظاهرَ الفساد المستشري الّذي يفرض على المواطن التزاماتٍ أُخرى لا تلحظها قوانين، ولا تقرّها أنظمة، تكون صورة المشهد المختلّ قد اكتملت.

الوضع خطير، وقد يؤدّي إلى ما لا تُحمَد عقباه، لذا، أرجو أن يتّخذ المسؤولون من الإجراءات، وأن يُقرّوا من الضّمانات ما يسمح لنا بأن نرتقي من موقع التّناتش والتّحاصص والانقياد خلف الأحقاد والعصبيّات العشائريّة والعائليّة والمذهبيّة والطّائفيّة، إلى مرتبةٍ تؤهّلنالأن يكون ولاؤنا للوطن أرفع وأقوى من أيّ ولاءٍ آخَر، فبهذا يستقيم وضعُ البلد، وتصلح الأمور، وإلّا فسنبقى ندور في دوّامة « فالج لا تعالج».

ب – أفاقت العنزة ذات صباح، تفقّدت القيد الملتفّ حول عنقها، اطمأنّت إلى أنّه ما زال متينًا قادرًا على «حمايتها»، همّتْ بالنّهوض، وقبل أن تستوي على قدميها، فوجئت بالثّعلب يدفعها بقوّة إلى داخل الكوخ المُجاور، ثُمَّ يُغلق الباب خلفها ليتركها غارقةً في العتمة محرومةً من النّور والضّياء.

بكَت، استغاثت، لكنْ من دون جدوى، ركعت على ركبتيها، وراحت تدعو...

« أللّهمّ خلّصْني من هذه العتمة الظّالمة. أللّهمّ العنِ الظّالم الّذي أوصلني إلى ما أنا فيه. يا ربّ كنتُ محرومةً من المرعى الأخضر فرضيتُ. أطعموني العشب الأصفر الفاسد، فلم أعترضْ. فرضوا عليّ العمل المرهق الشّاقّ مقابل عشيبات قليلات، فرضختُ. أكثروا من إحداث الأصوات المُرعبة المخيفة، فأدمنتُها وصارت جزءًا من حياتي. دسّوا في طعامي ألوانًا من السّموم، فاعتادها جسمي وتكيّفَ مع مصائبها. والآن يحرمونني النّور، ويحاصرونني بهذا الغطاء الظّالم من الظّلام.

الآن أعترف بأنّني ما عدتُ أحتمل. تروي لي جدّتي أنّها اعتادت عندما يأتي الرّبيع، وتلوح بشائر الصّيف، أن تسرح في الحقول، وتمرح بين الأعشاب. اعتادت أن تنعم بالنّور والضّياء. اعتادت أن تحارب الحَرّ بالاغتسال بماء البحيرة، وأن تقتل الملل بتسريح النّظر إلى البعيد، إلى حيث الأفق.

يا ربّ. لقد قطع عنّي هذا الثّعلبُ اللّعين النّور. أتلفّتُ حولي فلا أرى غير السّواد. الحَرّ شديد، ولا سبيل لي للوصول إلى حيث أغتسل وأبترد. أنادي. أصرخ. أطالب. لكنْ، ما من مُجيب. لا أنكر. وعدَني هذا الثّعلب في يومٍ مضى بأن لا يحرمني من حقّي من نور الشّمس وضوء النّهار، لكنّه نكثَ بوعده، وها قد رماني في هذه الظّلمة الحالكة.

أللّهمّ...

وقبل أن تكمل دعاءها، برز الثّعلب من ثقبٍ صغيرٍ في أعلى الحجرة الضّيّقة المظلمة، وسألها بأدب:

«هل تسلّمينني مجدّدًا الحبل المعقود على رقبتكِ إذا أدخلتُ إليكِ من هذا الثّقب شيئًا من النّور وقليلًا من الهواء؟»

وبلهفةٍ صاحت: «نعم. نعم. أسلّمُكَ الحبل».

وبدأ المشهد من جديد.

9 - وردة الحقل

هي زوجتي الّتي رافقتني شطرًا من العُمر، ورحلت في غفلةٍ من الزّمن. رحلت إثر عملٍ طبّيٍّ ما اعتقدَت، ولا اعتقدنا، أنّه يمكن أن يحمل خطرًا. رحلت وتركت فراغًا كبيرًا قدر

ما كان كبيرًا دورُها في الأسرة. ولأنّ دورها كان كبيرًا، استحقّت أن يكون على اسمها هذا الكتاب الّذي تروي سطوره مواقف لها، وتنقل شيئًا ومن شخصيّتها وطبيعة تفكيرها، ومن أثرها في بيئتها، سواء أ كان ذلك في عملها التّربويّ خارج المنزل، أم في تربيتها لوحيدتها، واهتمامها بأسرتها داخل المنزل.

هي رحلت، وتركت ظلالًا من صُوَر، وأشباحًا من ذِكرَيات.

نصٌّ من الكتاب

«.. في هدأة اللّيل تستيقظُ الذّكريات. كلّ ما في الغرفة يحدّثنا عنها. وعندما تختلط عتمة الظّلمة بهجمة الذّكريات تنشط الأفكار

والتّأمّلات، وتغدو رحِمًا لمَشاهِدَ وصُوَرٍ تتلاحقُ وتتزاحم. تحاول أن تلتقطَ شيئًا منها، لكنّها سرعان ما تغادر كسراب. تغادر قبل أن تتملّى منها. الذّكريات قاسية عندما تزورك عجلى. الصّور لاسعة عندما تلوح أمامك ولا تنتظرك. المَشاهدُ مُحرقة عندما تلمع في ذهنك، وتذوب قبل أن تشبع من النّظر إليها. يطيب للذِّكرَياتِ أن تصولَ في عتمة اللّيل وتجول. تحاول أن تطردها. أن تنساها. أن تتجاهلها. لكنْ عبثًا. كلّما حاولتَ الاختباء منها، تبدو أكثر إصرارًا على زيارتك. هي حلوة. محبّبة. لكنّها في الوقت نفسه قاسية. لا تتركُكَ ترتاح. تداعب عينيك الزّائغتين. تلثمُهما. ولا تغادر إلّا بعد أن ينهلَّ الدّمع. تمسح دمعةً تدحرجت، لكنّك تكتشف أنّ المشهد قد احتلّ مكانه واستحكم، فتستسلم لعاصفةٍ تهبُّ من ظُلمات الماضي، وتترك لقطراتٍ من الدّمع أن تَسقيَ الوجنتَين. لكنّ الدّموع هذه المرّة تُريحك. تسمح لك بأنْ تنفّس عمّا في داخلك. تأنس بها. تمسحها.. لكنْ بعطف ومحبّة. نعم. تمسحها بعطف ومحبّة لأنّك لا تريد لمَعينها أن يتوقّف. لا تريد لسيل الصّوَر الآتية من الماضي أن ينضُب. صوَرٌ مؤلمة وجميلة. صور تهزّك، لكنّها تُريحُك. تزلزلُ كِيانَك، لكنّك تستمتع بها. تتتابع الذّكريات، وتتلاحق الصّور... لكنّك في النّهاية تستيقظ من غيبوبتك لتعودَ إلى الواقع. الواقع الّذي يقول إنّ سيّدة البيت قد غدَت من الماضي، ولا سبيل إليها إلّا عبر الأفكار والتّأمّلات.. تغوص في تلك الأفكار والتّأمّلات.. يجمد الدّمع، وإذا سال فلكي يغسلك ويطهّرك ويذكّرك مرّة بعد مرّة بأنّها قد عبرت إلى العالَم الآخَر، وأضحت ذكرى أكثر توهّجًا من الماضي الجميل الّذي يدغدغُنا، ويُلهِبُ شوقَنا الدّائمَ إليه، وإلى مَن كانوا فيه.

تطلُعُ الشّمس. يسطع نورها. ينتشر الضّياء. تغادر الفِراش. تتحرّك في البيت. إنّه موعد الفطور. كنتَ تنشغل ببعض أمورك الخاصّة بانتظار أن يأتيَك صوتُها يناديكَ لتناولِ الطّعام. اليوم.. الوضع تغيّر. عليك أن تتعوّد على تناول الطّعام في غياب مَن كانت تُعِدُّ الطّعام. عليك أن تُقنِعَ نفسك بأنّ اجتماعَ العائلةِ يقوم على اثنين لا على ثلاثة. اثنان يحاول كلٌّ منهما أن يزرع القوّةَ في الآخَر، وأن يكون أقوى بالآخَر. اثنان يحاول كلٌّ منهما أن يُقنع الآخر بأنّه قويٌّ أمام ما حدث. محاولات من هنا وهناك، لكنّ ما في القلب يبقى معتملًا في القلب. الألم يعتصر القلبَين. هو ألم الفراق. بسمة ذلك الوجه الصّبوح غابت. براءة تلك الرّوح الطّاهرة مضت. عاطفة تلك الإنسانة الّتي غمرت عباءةُ وجودِها البيتَ ومَن فيه أضحَت ومضاتٍ من الماضي قد تحرق أكثر ممّا تضيء. إيقاعُ الحياةِ بعدها تغيّر. لم يعد كلّ شيء كما كان. اعتدنا نعمةَ وجودِها، فلم نعُدْ نلتفت إلى قيمة هذه النّعمة، وهذا الوجود. حتّى إذا انطفأ سراج العُمر، وحلّ الرّحيل، انتبهنا إلى المساحة المضيئة الّتي أنارها هذا الوجود، وإلى الفراغ الكبير الّذي خلّفه هذا الغياب.

مشاعرُ كثيرةٌ وأحاسيسُ متداخلةٌ تقرع تفكيرك معَ كلّ إطلالة شمس، ومعَ حُمرة كلّ غروب... حُمرة الغروب!.. يا له من مشهد!..

الطّبيعة تشاركك ما أنت فيه من انفعالات. الضّياء يهمُّ بأن يغادر. النّور ينكسر. خيوط النّور تتهالك متعَبةً قبل أن تتلاشى. النّهارُ يلفِظُ أنفاسَه. أجنحة اللّيل ترفرف. الظّلام يبدأ بنشر ظلاله. هدأة اللّيل تعود من جديد. يتكرّر المشهد.. بل المَشاهد... ويستمرّ الإيقاع صباحًا بعد صباح، وغروبًا بعد غروب...»

10 - .. والتقى المتوازيان

حامد وعلاء شابّان من بيئتين مختلفتين، دفعهما الاجتياح إلى النّزوح باتّجاه العاصمة بيروت. جمعهما الإيواء في مبنى إحدى المدارس حيث تعارفا وتصادقا.

حامد ترك خطيبته نوران في البلدة على أمل أن يعود إليها بمجرّد أن يسمح الوضع الأمنيّ بذلك، أمّا علاء، فرافقته في نزوحه والدته العجوز، وكان نزوحه فرصةً ليكون أقرب إلى خطيبته غنى المقيمة في إحدى ضواحي العاصمة.

رافق حامد صديقَه في زيارة غنى وأهلها، وكان تعارُف. من جهة ثانية، اعتُقل أبو حامد بعدما حصلت عمليّة ضدّ الاحتلال قرب مؤسّسته للموادّ الغذائيّة.

أفاق الصّديقان يومًا على أخبار المجازر في صبرا وشاتيلا، ليكتشفا بعد ذلك أنّ غنى وأهلها المقيمين في المنطقة قد قضَوا في تلك المجازر. المَشاهد الّتي رأَوها هزّتهما هزًّا، وقرّرا الانتقام للأبرياء الّذين سقطوا، خصوصًا بعدما تحرّر علاء من مسؤوليّة والدته الّتي تُوفِّيت، وبعدما طال اعتقال أبي حامد بغير ذنبٍ ارتكبه.

هل ينجحان في الانتقام؟ أم يصطدمان بعوائق؟

الرّواية تقدّم الجواب...

مشهد من الرّواية

«التّهجير يا حامد ليس مجرّد كلمةٍ تلفظها الشّفاه وتردّدها الألسن. اليوم، تفتح كُتب التّاريخ، فتقرأ عن التّهجير الّذي شهدته تلك الفترة، فترتسم في ذهنك صورة عامّة غير واضحة المعالم عن أُسَرٍ وعائلاتٍ أُجبِرَت على ترْك بيوتها، ولا توحي اللّفظةُ بأكثرَ من ذلك. لكنّ الواقع يتجاوز هذه الصّورة النّمطيّة بكثير.

في تلك اللّيالي السّوداء كان علينا أن نغادر البيوت الّتي آوتنا. أن نختار من موجوداتها ما يهمّنا، وكلّ ما فيها يهمّنا. أن نترك ذكريات الماضي المتغلغلة في الزّوايا والأركان. أن نترك مكانًا عبثتْ فيه طفولتُنا طويلًا. برغم كلّ ذلك خرجنا هاربين لا نحمل سوى ثيابنا الّتي على أبداننا، فالقصفُ كان شديدًا، ودويّ القذائف تُردِّدُ أصداءَه الأجواء. والمجزرة الّتي تعرّضت لها إحدى القرى المجاورة في اللّيلة السّابقة تحثّنا على المغادَرة لأنّ العصابات الصّهيونيّة كانت تصول وتجول في الحقول المجاورة. خرجنا بثيابنا وفي أيدينا مفاتيحُ بيوتنا. أوهمونا أنّها مسألةُ أيّام، وكانت رحلة التّهجير الطّويلة. التّهجير معاناة حقيقيّة. التّهجير له طَعمٌ كطعم الموت، لكنّ الموت يزورك مرّة واحدة، أمّا التّهجير فتتكرّر زياراته، وفي كلّ مرّةٍ يحمل لك لونًا من ألوان المعاناة. تتمنّى الموت لكي ترتاح ممّا تشهد وترى، لكنّك لا تدركه. عرفنا في رحلة خروجنا من فلسطين كلّ أنواع الإذلال. جوع. عطش. افتقار إلى أبسط شروط العيش الكريم. أطفال يرتعشون بردًا ويتضوّرون جوعًا. نساءٌ يعانين ما يعانين. رجالٌ ضاقت بهم الأرضُ بما رحبت فما عادوا قادرين على تأمين احتياجات عائلاتهم. وكان مصيرنا في النّهاية العيش في مخيّمات وسط الاكتظاظ المُريع، وفي ظلّ غياب شبه كامل للخدمات اليوميّة. يقولون إنّ الرّجال لا يبكون. لكنّني أعترف. أعترف بأنّني في رحلة التّهجير تلك بكيت. نعم بكيتُ. بكيتُ على زوجةٍ لا أستطيعُ أن أحميها. على أولادٍ لا أستطيعُ أن أُطعمهم. على مصير مجهول ينتظرنا. على بيتٍ تركناه. على ذكرَياتٍ غدَتْ أحلامًا. بكيتُ على كلّ ذلك. كانت دموعًا ساخنة أحرقت القلب وأدمته. آخ من التّهجير. وما أدراك ما التّهجير...»

11 - الحوض

أبو حمزة ربّ عائلة كانت تقيم في يافا. منزل متواضع وحديقة صغيرة مجاورة له. فوجئ يومًا بقرار من إحدى المحاكم بأنّ إقامته في المنزل غير شرعيّة. اصطدم الوالد مع الضّابط المكلّف بإخراجهم من البيت. هجم عليه وأعمل يديه في خناقه، وكاد يقطع أنفاسه. اعتُقل، أُدين بتهمة مقاومة رجال

الأمـن، وصـدر حُكمٌ بسجنه، وهـو السّتّينيّ، عشرين سنة.

قبع أبو حمزة في السّجن، وانتقلت عائلته إلى قطاع غزّة. حمل حمزة شهادة في إدارة الأعـمـال، إلّا أنّـه اضـطـرّ للعمل فـي محطّة محروقات، أمّـا شقيقه جهاد، فتابع دراسته الجامعيّة، لكنّه، وبـادّعـاء الاشتباه بنشاطه، اعتُقل وسُجِنَ إداريًّا، ومُدِّد اعتقاله مرّة بعد مرة.

توفّي الـوالـد فـي السّجن. تصـاب الـوالـدة خلال إحدى الغارات. تعتمل في نفس حمزة رغبة بالانتقام، فالعائلة خسرت البيت والحديقة والـوالـد، وحُـرم جهـاد مـن إكـمـال دراسـتـه الجامعيّة... اتّصل ببعض الأصدقاء القدامى لمساعدته في تنفيذ الانتقام المنشود.. هل يلبّي الصّديق رغبته؟ وهل ينجح في تحقيق هذه الرّغبة؟ وما علاقة أحداث الرّواية بعنوانها؟ الرّواية تجيب...

مشهد من الرّواية

«.. الزّمن حركة، وفي الحركة بركة، لكنْ، ماذا لو انفصلت الحركة عن الزّمن، أو تخلّى الزّمن عن الحركة؟.. ماذا لو تحرّك الزّمن تاركًا للجمود أن يبتلع ما تخلّفُه الدّقائق والثّواني من فراغات؟ ماذا لو تحوّلت حركة الزّمن إلى مجرّد عدّاد وغدَتِ الأيّام مجرّد أرقام؟... سئم أبو حمزة ذلك الزّحف الثّقيل للأيّام. صباحات تطلّ، وأيّام تعبر، وهو قابع في ذلك المكان المعتم... رحماك يا ربّ العالمين. رحماك يا أرحم الرّاحمين. أيّام عبرَت وسنون انقضت. يكاد العمر ينقضي وأنا في هذه الدّائرة من الانتظار القاتل والموت المؤجّل. تشرق الشّمس، ألمح بعضًا من خيوطها. تغيب، تغشاني ظلمة غيابها. لا الشّروق يغيّر، ولا الغروب يبدّل. لا أملك في الحالَين سوى مرافقة تكتكات الدّقائق والثّواني، وعدّ السّاعات وإحصاء الأيّام. تكاد نفسي تـزهـق، وتـوشـك روحـي أن تـخـرج من جسدي. الوقت ثقيل ثقيل. أكاد أسمع نبضات قلبي وهي تقرع صدري بإلحاحٍ لا أرى له من داعٍ. لماذا يصرّ الزّمن على العبور؟.. لماذا يصرّ هذا القلب المتعَب والمتعِب على اختلاجٍ ما له من فائدة.. عقود طويلة من العُمر مرّت. معظم العُمر انقضى. لا أدري كم بقي من هذا العُمر الّذي سرقوه منّي، ولم يتركوا لي سوى عدّ ما تبقّى من أيّامه. تعبتُ. تعبتُ من هذا الانحصار المُضني. تعبتُ من هذا الجمود القاتل. تعبتُ مـن الـوقـوف علـى رصـيـف الـزّمـن الـجـاري مسرعًا من دون توقّف. تعبتُ من مراقبة الحياة المنطلقة حولي في كلّ اتّجاه فيما أنا أسيرُ دائرةِ الانتظار. الانتظار؟ أيّ انتظارٍ هذا؟ ماذا أنتظر؟ هل هناك ما أنتظره بالفعل؟ العُمر سبق طموحاتي بأشواط. العُمر يكاد يبلغ نقطة النّهاية وأحلام هذا الجسد المتعَب ما تزال في البدايات. تتوثّب نفسي لتفعل الكثير، لكنّ هذا الهيكل المقيّد بالقضبان الصّمّاء يقف عاجزًا عن القيام بأيّة حركة. يقولون إنّ الإنسان يعيش عمره مرّةً واحدة، صحيح، لكنّ عمري عبر من دون أن أعيش. نعم. لم أعِشْ عمري لا مرّة ولا مرّتين. فتحتُ عينيّ على الجنود الإنكليز يبطشون ويقهرون، وتفتّحت مراهقتي على الخوف من عصابات القتل والإرهاب تجول في الشّوارع وتصول. ومع إطلالتي على الشّيخوخة

أذاقوا عائلتي كأس التّهجير وجرّعوني مرارة الاعتقال. الأنذال. افترَوا عليّ وظلموني. أخرجوني من بيتي وحرموني من أرضي بغير وجه حقّ. اغتصبوا قطعة الأرض الّتي اشتريتُها بتعبي وكدّ يميني، بعدما جمعتُ ثمنها على مدى عقدَين كاملَين من الزّمن، وانتزعوني من البيت الّذي من أجله عملتُ وجاهدتُ وتعبتُ، واستطعتُ بشقّ النّفس أن أرفع بنيانه مدماكًا في إثر مدماك، وأن أكمل هندسته غرفةً بعد غرفة. حتّى إذا اتّسع البيتُ وتحوّلت الحديقة الّتي رويتُها بعرق الجبين إلى جنّةٍ غنّاء، جاؤوا يدّعون أنّ البناء غير شرعيّ متسلّحين بقرار ظالم من إحدى محاكمهم يقضي بإخراجنا من المنزل. هي محكمة على طرازهم. مجرّد جهازٍ وظيفتُه شرعنة الظّلم وإباحة القهر. صعقني قرارُهم. كان الموقف بمثابة كارثة. لم أتمالك نفسي. هاج الدّم في عروقي. تصدّيتُ للضّابط المكلّف الإشراف على التّنفيذ. بدا لي من فصيلةٍ لا تنتمي إلى البشر. أطبقتُ يديّ على خِناقه. صمّمتُ على إخماد أنفاسه. اعتقلوني وحاكموني بتهمة مقاومة قوى الأمن. يا لهم من أنذال!.. حكموا عليّ بالسّجن عشرين سنة وأنا ابن السّتَين. رمَوني خلف القضبان منذ عقدٍ من الزّمن. بعد مرور هذه السّنوات أشعر بأنّ وضعي يشبه وضع أيّ حجرٍ من حجارة هذا المبنى. تجاوزتُ السّبعين. اكتمل ابيضاض الشّعر. لم أرَ أحدًا من عائلتي منذ سنوات. العُمر بلغ مراحله الأخيرة. لا أدري ما إذا كان الزّمن سيسمح لي بأن أعود إلى عائلتي يومًا. أنفعلُ. أنقم. تهبّ في داخلي رياح الثّورة. أفكّر في أن أنتقم منهم ومن طغيانهم، لكنّ كلّ ذلك يهمد تلقائيًّا، فأنا هنا مجرّد سجين. مجرّد رقم من الأرقام. مجرّد كتلة مرميّة لا يُحسَب لها حساب. خصمي قضبان خرساء وجدران بكماء. الأنذال. رمَوني في هذا المكان ونسوني. لم تشأ المحكمة الظّالمة أن تحكم عليّ بالسّجن المؤبّد، أو بالإعدام، فاختارت أن تغلّف عدالتها بالسّنوات العشرين. بالإعدام البطيء. خطفوا نصف عمري عندما أخرجوني من بيتي الّذي أفنيتُ زهرة شبابي لتحصيل ما استطعتُ به أن أبنيه وأوسّعه، وخطفوا النّصف الثّاني عندما حكموا عليّ بالسّجن عشرين عامًا. لا يريدون لي أن أخرج من الزّنزانة إلّا إلى القبر. نعم. هذا ما يريدونه. الأبالسة. يصادرون حياة الواحد منّا بشحطة قلم. يخطفون أعمارنا. يسلخوننا من أرضنا. يُخرجوننا من بيوتنا. وإذا اعترضنا كنّا المخرّبين والإرهابيّين. يا إلهي. ما أبشع الظّلم وما أقسى وقْعه في النّفس!.. عمري كلُّه ضاع على مذبح ظلمهم. أنا الآن ربّ أسرة ولا أعرف شيئًا عن أسرتي. أنا إنسان محسوب على الحياة ولا أتذوّق شيئًا من مُتع الحياة. أنا كائن لي آمالي وأحلامي وطموحاتي، وهذه القضبان وأدتْ آمالي وأحلامي وطموحاتي. أنا طائر مَهيض الجناح. تحلّقُ بي أفكاري عاليًا فأخترق أجواز الفضاء، أو تغوص بي نزولًا فأشمّ رائحة التّراب، وفي الحالين أرى نفسي كتلةً من لحمٍ عاجزةً لا حول لها ولا قوّة. على مدى عشر سنوات لم تستطع زوجتي زيارتي سوى مرّتين فقط. نعم. زارتني مرّتين. مضى على الزّيارة الثّانية أكثر من خمس سنوات. أنا الآن لا أعرف أيّ شيء عن أسرتي. عن حمزة. عن جهاد. عن دنيا ولينا. أنا معزول تمامًا عن العالم الخارجيّ.

رحماك يا ربّ العالمين. ما عدتُ قادرًا على الاحتمال أكثر. تعبتُ، تعبتُ من كلّ ما يدور حولي ومن كلّ ما يحيط بي. تعبتُ من سماع وقع أقدام السّجّانين في الخارج. تعبتُ من حركتي البلهاء في هذه المساحة المحدودة من الأرض كما يتحرّك عصفور في قفص. تعبتُ من رؤية نور الشّمس الشّاحب يطلّ من النّافذة العلويّة كلّ صباح ليذكّرني بأنّ يومًا آخر من أيّام العُمر يعبر. تعبتُ من إيقاع الحياة المملّ. تعبتُ من أنفاسي تعلو وتهبط بغير فائدة. تعبتُ من كلّ شيء. نعم. من كلّ شيء. أنا الآن تجاوزتُ السّبعين. سبعون عامًا محسوبةٌ عليّ. سبعون عامًا مضت من العُمر المكتوب لي. يا لهذا العُمر كيف مضى!.. تكاد الدّموع تطفر من عينيّ. يكاد البكاء يلتهم أنفاسي. ما عدتُ قادرًا على الصّمود أكثر. عشر سنوات اقتُطِعَتْ من عُمري. عشر سنوات زاملتُ خلالها هذه القضبان اللّئيمة. عشر سنوات لا جليس لي خلالها سوى هذه القضبان. أكاد أحدّثها. أوشك أن أبوح لها بما يصطرع في ذهني من أفكار. كلام كثير يجول في خاطري. كلام كثير أحدّث نفسي به. كلام كثير يخرج من ذاتي إلى ذاتي، فلا يرى النّور، ولا يُسمَع له صوت. أكاد ألامس الجنون. لو قُدّر لمكنونات صدري أن تخرج إلى الملأ لملأَ صراخي الأرجاء. لكنّني أدري أنّ صراخي أخرس، وأدرك أنّ الأفكار الّتي تجول في داخلي بكماء. لو ملأتُ هذه الزّنزانة صراخًا وصياحًا فلن يتجاوز صوتي حدودها. لن يسمعني أحد. لن يعرف حقيقة مأساتي أحد. أنا هنا مرميّ ومنسيّ. بل أكثر من ذلك. أكاد أكون شبيه أيِّ حجرٍ من هذه الحجارة. نعم. أكاد أكون كأيّ جسمٍ جامد لا أثر للحياة فيه. تصطرع في داخلي الأفكار والمشاعر والأحاسيس، وتتسابق الكلمات، وتعصف بي الصّرخات المكبوتة، والتّأوّهات المخنوقة، ومع ذلك لا يشعر بي أحد، ولا يأبه لي أحد. حرّاس السّجن يكادون يكونون كقضبانه وجدرانه. جمود يلفّه جمود، ولامبالاة تحتجب خلف لامبالاة. الوقت يمرّ ثقيلًا ثقيلًا. الدّقائق شفرات تحزّ، والسّاعات سكاكينُ تقطع، والأيّام شهود زور تسجّل عليّ مرور أسابيعَ وشهورٍ لا ألمس منها سوى خيوط شمسٍ شاحبة وظلال ظلمةٍ قاتمة. لم أكن أدرك أنّ السّجن يمكن أن يكون بمثل هذه القسوة. كنتُ أسمع أخبار المعتقلين المرميّين في المعتقلات. كنتُ أتأثّر، لكنّ الصّورة كانت مجملة لا تفاصيل فيها. عندما دخلتُ التّجربة فهمتُ معنى أن يكون الإنسان سجينًا. وعندما وُضعت في الانفراد عرفتُ أكثر معنى أن يكون الإنسان معزولًا عن العالَم وعن كلّ ما ينبض بالحياة. من يعِشْ تجربة الانفراد يدركْ أنّ السّجن في زنزانةٍ تضمّ آخرين نعمة. الأبالسة. واجهتُ رجال الشّرطة فاعتقلوني، وباسم العدالة سجنوني، وعندما تصدّيتُ لعنجهيّة السّجّان وكبريائه نقلوني إلى الانفراد ونسوني. كأنّهم أرادوا لي أن أدمّر نفسي بنفسي. « الجنّة بلا ناس ما بتنداس». لم أفهم جوهر هذا القول إلّا عندما خضتُ التّجربة، والتّجربة قاسية قاسية. نعم. السّجن الانفراديّ جمود قاتل وموتٌ غير معلَن، بل هو موت أصعبُ من الموت. الموت يزور الإنسانَ مرّة واحدة وتنتهي قصّته مع المعاناة، أمّا في السّجن الانفراديّ، فالموت

زائر دائم. يتفقّدكَ في كلّ لحظة. يلامسك. يدور حولك. يمسح وجهك ببرودته القاسية. يتغلغل في شراييننك. يضيّق عليك الأنفاس. يوشك أن يخنقك. تكاد تفرح عندما يخيَّل إليك أنّ المعركة بلغت نهايتها، لكنّك سرعان ما تُحبَط عندما تفاجأ بأنّ هذا الزّائر الملحاح قد تراجع تاركًا لك فرصة جديدة للحياة. السّجين في الانفراد يكاد يكون قطعة أثاث منسيّة. نعم. يقوى لديه هذا الشّعور كلّما أحسّ بنبض الحياة في الخارج وبعجْزه حتّى عن الكلام. نعم. أنا عاجز حتى عن أن أقول كلمة. ولمن أقولها؟ وهل هناك من أحدّثه أو أكلّمه؟ هل هناك من يسمع؟ تتطاير في داخلي الكلمات. تصطرع المشاعر. تتداخل الأحاسيس. يبلغ بي الضّيق مداه. وعندما أحاول أن أقول شيئًا، أبدو في نظر نفسي كالمجنون. نعم. كالمجنون. أخاطب نفسي وأحدّث نفسي، فلا ترى كلماتي النّور، ولا أسمع لها صدى. لا صدى لها سوى ذلك الأجيج الّذي يكاد يحرق أحشائي ويحوّل آهاتي إلى رماد. ربّاه. الموت رحمة. دعه يفتك بي ويخرجني إلى عالم الحُرّيّة. إلى عالم الرّحمة الواسع».

12 - مجرّد إشكال

أبو نعمان فلّاح ورث عن أبيه منزلًا وبستانًا غنيًّا بالأشجار والثّمار. كان يعيش من إنتاج هذا البستان، وأحيانًا كان يعمل مع جاره أبي نزار المقاول في قطاع البناء. نال نعمان شهادة الثّانويّة العامّة بتفوّق، ورأى أبو نعمان أنّ الفرصة قد حانت لتنفيذ حلمه بأن يرى ابنه طبيبًا. باع البستان، ليتمكّن نعمان من السّفر

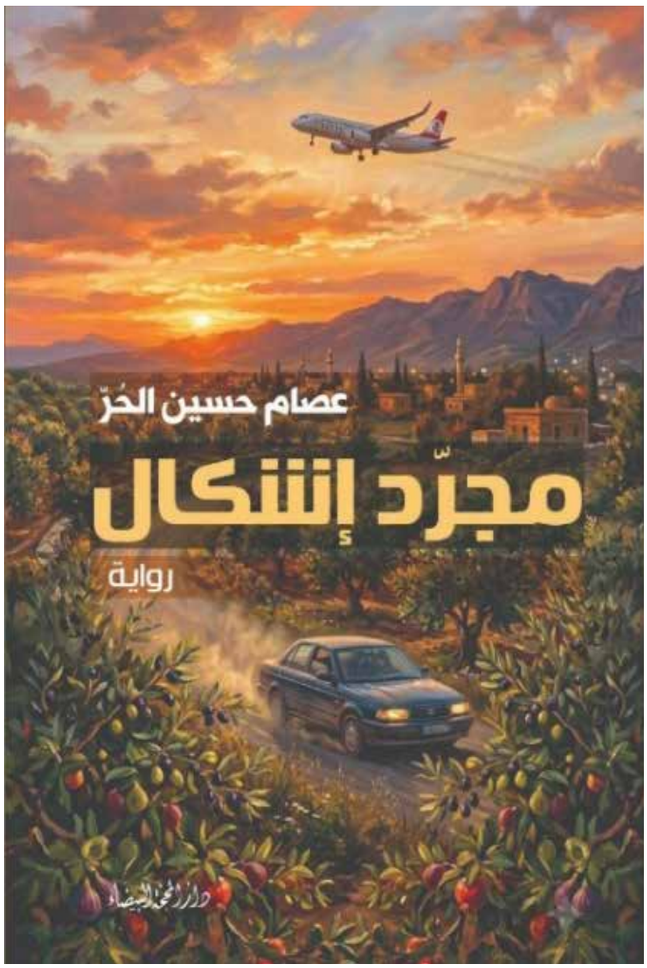

إلى إحدى الدّول الأوروبيّة، ويباشر دراسة الطّبّ، وبذلك أضحى أبو نعمان مضطرًّا إلى التّفرّغ للعمل في قطاع البناء مع جاره أبي نزار. يحصل عارض صحّيّ لأبي نعمان. يقرّر نعمان أن يكتفي مؤقّتًا بدراسة الطّبّ العامّ، ويؤجّل الاختصاص، ليتمكّن من إعالة والدَيه، وإراحة والده من العمل. هل يحقّق مراده؟ وما طبيعة الإشكال الّذي اصطدم به؟ الجواب بين السّطور...

مشهد من الرّواية

«.. الأرض.. كم هي غالية، وكم هو غالٍ ترابُها!... منذ إطلالة شمس هذه الصّبيحة وأبو

نعمان يجول في أرضه ذهابًا وإيابًا. يقف أمام ذلك الصّفّ الطّويل من الأشجار. هي أشجار تنوّعت شكلًا وتلوّنت ثمارًا. ينظر إلى أغصانها المثقلة بالثّمار بعين العطف والحنان. ما من صنفٍ إلّا وله وجود في هذه البقعة المباركة. نعم. هي بقعة مباركة. ما بخلَت يومًا في العطاء. يتابع السّير، يستوقفه منظر العريشة «المعربشة» على بعض القضبان. تلفته حُبيباتُ الحصرم الملتمعة تحت أشعّة الشّمس. الموسم هذه السّنة كريم. سيجود الحقل بالكثير من العنب. يستمرّ في حركته المتباطئة. أحواضٌ متوازية فيها ألوان من الخضار وأصناف. يكاد اللّون الأخضر يطغى على كلّ ما فيها. يُجيل الطّرف في ما حوله. أشجار وثمار. أغصان وأوراق. بقول وخضروات. ألوان تجاور ألوانًا وخيراتٌ تحاكي خيرات.

يتوقّف عن المسير. يجمد في وقفته للحظات، قبل أن يتّجه إلى صخرة قليلة الارتفاع تقع عند طرف الحقل. يجلس عليها. يضع عصاه جانبًا ويغوص في بحر من الأفكار والتّأمّلات... انحدرت على وجنته دمعة... لم أتصوّر يومًا أنّني سأجد نفسي غارقًا في مثل هذا الشّعور. سنوات مرّت وأنا عازم على أن أبيع الأرض ليتخصّص نعمان. كنتُ صادقًا في ما عزمتُ عليه. بل كنتُ مندفعًا ومتحمّسًا. نعم. كنتُ أنتظر بفارغ الصّبر لحظة نيله الشّهادة لأبيع الأرض ويشقّ طريقه في عالَم التّخصّص. الآن حلّت هذه اللّحظة. يوم أمس اتّفقتُ مع الشّاري ووقّعنا عقد البيع. سيستلم الأرض مع انتهاء موسم الصّيف. نهايةَ شهر أيلول. الآن فقط أدركتُ طبيعة الموقع الّذي تحتلّه هذه الأرض في نفسي. هذه الأرض سقاها الوالد بعرقه، ورواها بقطرات من دمه، وزرع فيها جهده وتعبه. أعطاها عمره وحياته وكلّ طاقته. أعطاها كلّ ما امتلكت يداه وتركها لي جنّةً غنّاء. نعم. لا أبالغ. تركها جنّةً بكلّ ما للكلمة من معنى. أصناف من الأشجار. ألوان من الثّمار. أشكال وأشكال من الجود والكرَم. هذه الأرض صرفتُ فيها صباي وشبابي وكهولتي. لم أكُنْ بلغتُ العاشرة عندما كنتُ أرافق والدي معظمَ الصّباحات لأراقبه وهو يعمل فيها. كنتُ أفرح عندما يطلب منّي أن أناوله معولًا أو منجلًا أو أن أنفّذ أمرًا ما. كنتُ أشعر في تلك اللّحظة بأنّني أقوم بعملٍ أساعد به والدي. كانت أيّامًا رائعة. بعد الوالد تولّيتُ الاهتمام بالأرض وبما فيها. كنتُ بلغتُ يومها العشرين من عمري. كنتُ آتي إليها بحُبّ، بل بعشق وشوق. نعم. أحببتُها. عشقتُها. حنَوتُ على كلّ حبّة ترابٍ من ترابها. حفظتُ تفاصيلها. ارتسمَت في ذهني صورة كلّ شجرة من أشجارها وكلّ حوضٍ من أحواضها. أعطيتُها كما أعطاها الوالد، بل ربّما أكثر. على مدى مراحل العُمر لم أتركْها يومًا. كنتُ أشعر بسعادة عندما تطأ قدماي ترابها. أعطيتُها طاقة الشّباب، ومنحتُها عزم الفتوّة، ولم أبخلْ عليها بجهد الكهولة. لا أذكرُ أنّه مرّ يوم من دون أن أزورها ولو متفقّدًا. لقد زرعتُ فيها سني العُمر. كلّ حبّة ترابٍ من ترابها لها في نفسي حكاية، وكلّ غصنٍ من أغصان أشجارها له في قلبي موقع. بل لا أبالغ إذا قلتُ إنّ روحي انسكبَت سائلَ حياةٍ

روى جذور نباتها والشّجر... أجلسُ الآن على هذه الصّخرة وأترك لعينيّ أن تستمتعا بما في هذه الأرض من جَمال وأن تتزوّدا بما تختزنه من حُبّ... حُبّ؟!... نعم. حُبّ. لقد أحببتُكِ أيّتها الأرض. أحببتُكِ بصدق. أحببتُكِ بجنون. قلبي يبكي على فراقكِ قبل أن تبكي العين. كنتُ أتمنّى أن أبقيكِ لولدي كما أبقاكِ والدي لي. كنتُ أتمنّى أن لا أتخلّى عن أيّة حبّة تراب من ترابكِ، لكنّها الحياة قاسية. نعم. الحياة قاسية. الحياة لا تُعطي إلّا بعد أن تأخذ. أنا مجبَر على ما أقدمتُ عليه. نعم. أنا مجبَر. الحُلم الكبير لن يرى النّور إلّا بالتّضحيات الكبيرة».

السّيرة الذّاتيّة

فصل من السّيرة

بحثًا عن...

سبقت الإشارة إلى أنّني كنتُ في هذه المرحلة، المرحلة المتوسّطة من دراستي، أتابعُ الأمورَ العامّة، وأقرأ بشكلٍ شبه يوميّ المقالاتِ السياسيّة، وخصوصًا ما يتعلّق بفلسطين، وبالصّراع العربيّ الصّهيونيّ، وعلى هامش ذلك، كانت تمرُّ أمامي بعض المقالات الفكريّة ذات الاتّجاهات المتعدّدة. هذه المطالعات جعلتني أغوص باكرًا في التّفكير في هذه الحياة برمَّتها.. طبيعتها؟ حقيقتها؟ مُبتداها ؟ مُنتهاها؟ والمصير الّذي ينتظرُنا، وما إلى ذلك من تساؤلاتٍ كانت تقرع تفكيري، وأحاول، بحدود مداركي المحدودة، أن أجدَ بشأنها إجاباتٍ تقود إلى شيءٍ من الارتياح النّفسيّ، والواقع أنّ هذه التّساؤلات كانت بدأتْ تطرقُ تفكيري قبل أن أبلغَ العاشرة من عُمري، فأنا فتحتُ عينيّ على والدَينِ يؤدّيان الصّلاة، ويصومان، ويتحدّثان عن حلالٍ وحرام، وعن جنّةٍ ونار، وعن ثوابٍ وعقاب، وما إلى ذلك، ولعلّ رحيل الجدّة الّذي أشرتُ إليه ،آنفًا، والأجواء الّتي تركها قد فعّلَ هذه التّساؤلات، وجعلَها أكثر إلحاحًا . صحيحٌ أنّه في المدرسة الابتدائيّة كانت هناك حصّة مخصّصةٌ للتّعليم الدِّينيّ، وفي المرحلة المتوسّطة خُصِّصت أيضًا حصّةٌ للثّقافة الدِّينيّة، كان يتولّى تدريس الطُّلّاب المُسلمين خلالَها أحدُ المشايخ، فيما يتولّى تدريسَ الطُّلّاب المسيحيّين رجلُ دينٍ مسيحيّ، وصحيحٌ أنّني عمدتُ أكثرَ من مرّةٍ إلى حضور الدّرس معَ الزُّملاء من الطُّلّاب المسيحيّين، إلّا أنّ كلّ ذلك لم يوصلْني إلى مرحلة الاطمئنان، ففي تلك المرحلة، كان هناك مدٌّ واسع الانتشار للفكر الإلحاديّ، وقد تأثّر بهذا الفكر معظمُ المثقّفين، وكان لي أصدقاءُ ينتمون إلى مختلفِ التّيّارات، وقد دعاني بعضهم إلى حضور ندواتٍ وأمسياتٍ تُطرح فيها قضايا سياسيّة وفكريّة وعقائديّة. كنتُ أحضر هذه النّدوات. أستمع. أناقشُ. أحيانًا أقتنع، وأحيانًا لا أجد في ما أسمع ما يُقنِع. وهنا أذكرُ أنّ أحد الأقارب، وكان يكبرُني بسنواتٍ قليلة، دأبَ، وبشكلٍ مكثّف، على عقْدِ جلساتٍ طويلة معي، كان يفتح معي خلالها بعض المواضيع المتعلّقة بالوضعِ السّياسيِّ في البلد، والطّبقة الحاكمة، وبأمورٍ أُخرى

يربط بينها، بشكلٍ أو بآخَر، خيط عقائديّ. كنّا نتناقش، وكان النِّقاش، في الغالب، يتشعَّب إلى أمورٍ عديدةٍ تستوجبُ التَّأمُّلَ والتّفكير، وقد نصحَني بقراءة إحدى المجلّات الأسبوعيّة، وهي مجلّة سياسيّة كانت تنطق باسم التّنظيم الّذي ينتمي إليه هذا القريب. لبَّيتُ طلَبَه، وتابعتُ هذه الدّوريّة لفترةٍ منَ الزَّمن. كنتُ أرى في بعض ما تنشرُه هذه الدَّوريّة من مقالاتٍ موضوعيّةً تستحقُّ الاحترام، وكنتُ أرى في مقالاتٍ أُخرى إشكاليّاتٍ تستدعي التَّوقُّف عندَها والتّأمُّل فيها.

باختصار، أستطيع أن أقول إنّني تواصلتُ مع معظم الأحزاب والتَّنظيمات العاملة آنذاك، والقضايا الَّتي كانت تطرحها كانت في الغالب سياسيّة، ولاحظتُ أنّ كلّ طرفٍ كان يُغلّفُ كلَّ قضيّةٍ سياسيّةٍ يطرحُها بموقفٍ، أو بيانٍ، أو تصريحٍ لقيادته ليؤكّد أنّ هذه القيادة على حقّ، وأنَّها مُخلصةٌ في ما تتَّخذه من مواقف.

خرجتُ من هذه التَّجربة بثقافةٍ سياسيّةٍ وفكريّةٍ غنيّةٍ من دونِ أن أَلتزمَ أو أنخرطَ في أيّ تنظيم، لكنّ القضيّة الكبرى الَّتي كانت تشغلُ بالي، وهي قضيّة هذا الوجود، بقيَت تضغطُ على تفكيري، وبقيَتْ تشكّلُ عاملَ قلقٍ نفسيّ حقيقيّ لم يغادرْني، ولم أستطعْ أن أغادره.

هنا، عُدْتُ إلى قراءة الكُتب، وخصوصًا الكتبَ الَّتي تطرحُ قضايا فكريّة وفلسفيّة. بطبيعةِ الحال، لا أستطيعُ أن أقولَ إنّ كلّ ما قرأتُه كان على درجةٍ واحدةٍ منَ القُدرة على الإقناع، لكنْ، في الوقت نفسِه، لم يخلُ كتابٌ من حقيقة، أو فكرة، أبانَها لي لم أكنْ مُلتفتًا إليها.

ولا أُجافي الحقيقة إذا قلتُ إنّي مررْتُ خلال هذه المرحلة بحالةٍ من القلق النَّفسيّ. كنتُ متشوّقًا لمُعانقةِ الحقيقة، والرُّسوّ على بَرّ الاطمئنان. لذلك، قرأتُ الكثير منَ الكتب، وطالعت الكثير منَ المقالات الَّتي كانت تنشرُها الدَّوريّات الملتزمة.

بعد هذه الرّحلة منَ القراءات والمطالعات، وبعد الاطّلاع على جانبٍ منَ الفكر السّياسيّ والعقائديّ الَّذي يحملُه بعض القوى الحزبيّة العاملة آنذاك، قرّرتُ أن أعودَ إلى الذّات، إلى ما يقودُني إليه التّفكير الهادئ الواعي القائم على العقل والمنطق.

الأمر الأوّل الّذي جذبَني إلى إمعان التّفكير فيه هو هذا النِّظام الكونيّ الرّائع الَّذِي نحيا في ظلّه، فهذا النّظام، كما يؤكّد العلماء، قائم منذ مليارات السّنين، وهو يقوم على حركةٍ منتظمةٍ في غاية الدِّقَّة، بحيث يستطيع العلماء أن يبنوا على هذه الدّقّة حساباتهم الفلكيّة المختلفة.

في هذا الإطار، وجدتُ نفسي أمام مجموعةِ عناصرَ منفصلةٍ عن بعضها ومتباعدة، إلّا أنّها متكاملة. فكوكبُنا ، كوكبُ الأرض، يدور في الآن عينه دورتَين، إحداهما حول نفسه، والثّانية حول الشّمس، الأولى يتولَّد منها اللّيل والنّهار، والثّانية تتولّد منها الفصول الأربعة. وفي الوقت نفسه، يتحرّك القمر وَفق نظامٍ محدّد يَنتجُ عنه تحديدُ الشُّهور القمريّة.

وفي موازاة ذلك، تنتشرُ في السّماء الكواكب والنّجوم في مواقعها المختلفة. هذه العناصر الَّتي لا يربط بينها رابطٌ مادّيّ، توزّعت في أماكنَ مختلفةٍ لتشكّلَ البيئة الصّالحة لنُشوء الحياة على الأرض. الشّمسُ تُعطي هذه المنظومة الحرارةَ من موقعٍ يُجمع العلماء على أنّه الموقِعُ المِثاليُّ لاستمرار الحياة على الأرض، فهي إذا ابتعدت تجلّد الكوكب، وإذا اقتربت احترق. وفي الوقت نفسه تدور الأرض وتتحرّك في مساحة محدّدة، ووَفق آليّةٍ محدّدة، بحيث تتوالد الأيّام تِباعًا، وفي مواعيدَ محدّدةٍ للشُّروق والغروب، بمعنى أنّنا لو أخذنا أيَّ يومٍ من أيّام السّنة، وعدنا إلى هذا اليوم في السّنوات السّابقة، بل في القرون السّابقة، لوجدنا أنّ شروق الشّمس في هذا اليوم ثابتٌ لا يتغيّر، وكذلك غروبها، ما يُشيرُ إلى منتهى الدّقّة والانتظام، ولهذا يستطيع علماء الفلك الّذين يضَعون التّقويمات السّنويّة (الرّوزنامة) أن يحدّدوا في كلِّ يومٍ من أيّام العام موعد شروق الشّمس، وموعد توسُّطِها كبدَ السّماء (الظّهيرة)، وموعد اختفائها خلف الأفق لتُطِلّ مرّةً أُخرى معَ إطلالةِ يومٍ جديد.

في الوقت عينه، يزيّن القمر سماء كوكبنا. نراه أحيانًا هلالًا، ونراه أحيانًا بدرًا، وبين هذه الحالة وتلك، تتحرّك الأيّام، وترتسم الشّهور القمريّة بدقّةٍ ما بعدَها دقّة، بحيث يستطيع العلماء أن يحدّدوا بالسّاعة والدّقيقة والثّانية، موعد دخول القمر في المحاق، وموعد ولادته مجدّدًا ، ليعلن بدء شهر قمريّ جديد تتحدّد على أساسه مواقيتُ ومواقيت.

في ظلّ هذا النّظام الكونيّ، تتحرّك الحياة على الأرض الّتي تغمر المياهُ ثلاثة أرباع مساحتها. الشّمس تبخّر مياه البحار والمحيطات، وتحوّلها إلى سُحُب، وتعمل المتغيّرات المناخيّة على تحويل هذه السُّحُب إلى أمطار تسقي الأرض ونباتاتها، وتروي الإنسان، وتمدُّه بسائلِ الحياة. وهنا قرعَ تفكيري أكثرُ من سؤال : ماذا لو كانت حرارة الشّمس أضعفَ من أنْ تكونَ قادرةً على تبخير المياه؟ هل تستقيم الحياة على الأرض في هذه الحال؟ هل يَخرجُ من الأرض نباتٌ، وهل يعيش بشر؟

في هذا المجال، أمرٌ آخَر لفتَني، وهو كونُ مياه البحار والمحيطات مالحةً، فالكلُّ يعلم أنّنا إذا تركنا كمّيّةً، ولو ضئيلة، منَ المياه الحلوة لفترةٍ منَ الزَّمن، فسوف تأسنُ وتتوالد فيها أنواعٌ من الحشرات والطُّفيليّات. وهنا لمع في ذهني سؤال افتراضيّ: ماذا لو كانت مياه البحار والمحيطات حلوة؟ هل يستطيع البشر في هذه الحال أن يتحمّلوا ما سوف تولّده هذه البحار والمحيطات من حشرات؟ هل يستطيعون أن يتعايشوا مع هذا الواقع؟

الخلاصة ممّا سبق: المياه المالحة لا تشكّل بيئةً صالحةً للطّفيليّات، وفي الوقت نفسه، لا تستطيع أن تَرويَ الإنسان، وهنا ، قُدّر لِحرارةِ الشّمس أن تبخّر المياه، لتشكّل سُحُبًا تتحوّل مياهًا حلوةً تسقي وتروي.

طبعًا، المعلومات الّتي أوردتُها ليست معلوماتٍ جديدة، وإنّما هي معروفة وثابتة

ومتداوَلة، إلّا أنّ ما أردتُ الإشارة إليه هو أنّه لو كان هناك اتّصالٌ مادّيّ بين الشَّمس والقمر والأرض لأمكنَ القولُ إنّ القوانين الطّبيعيّة جعلَتْ هذا الجسم المترابط المكوَّن من هذه العناصر قادرًا على الدِّفاع عن نفسِه واستيلاد الطّاقة التي تُتيح له البقاء والاستمرار، لكنّ الواقع غير ذلك، فالشّمسُ تبعد عن الأرض حوالَيْ مئةٍ وخمسين مليونَ كيلو متر، أمّا القمر فيبعد عن الأرض ما يزيد عن ثلاثِ مئةٍ وثلاثةٍ وثمانين كيلومترًا، ويبعد عن الشّمس ما يقربُ من مئةٍ وسبعةٍ وأربعين مليونَ كيلومتر، وهي مسافاتٌ كبيرة جدًّا يصعب حتّى تخيُّلُها، ومع ذلك، فإنّ هذه العناصر (الشَّمس والقمر والأرض) تحتلّ المواقع المناسبة تمامًا لكي تتكاملَ أدوارُها ، وتنشأ بفعلِ هذا التّكامل الحياة على الأرض وتستمرّ. قد يقول قائلٌ إنّ الجاذبيّةَ تحكُمُ حركة هذه الكواكب وتحدّد مواقعَها. صحيح. لكنّ الجاذبيّة تزداد أو تنقصُ بحسَبِ حجم الكوكب، وكان من الممكن أنْ يكونَ حجم أحد الكواكب أكبرَ من الحجم المناسب، فتزداد جاذبيّته، ويؤدّي ذلك إلى ارتطامٍ بين الكواكب، أو أنْ يكون حجمه أصغر، فتنخفض جاذبيّته، ما يؤدّي إلى تفلُّتٍ يُصيبُه ويصيب عددًا من الكواكب، وفي الحالين لا يكون انتظام.

هذا من ناحية. من ناحية ثانية، فإنّ هذه العناصر، أي الكواكب، ليست ثابتة، بل إنّها في حركةٍ دائمة، وإذا كان ممكنًا للجسم أن يكون ثابتًا في تكوينه، فمن غير الممكن أن يحافظ على ثبات حركته لفترةٍ طويلة من الزّمن، فالحركةُ يمكن أن تزداد، كما يمكن أن تنقص أو تخفّ، وأيُّ عاملٍ من العوامل الطبيعيّة يمكن أن يؤثّر على طبيعة الحركة، سواء من حيث قوّتها أو ضعفها، أو من حيث اتّجاهها، واللّافت أنّ حركة الشّمس والقمر والأرض مستمرّة بانتظام، وبالوتيرة عينها، منذ مليارات السّنين، لا الشّمس غيّرت موضعها، ولا الأرض خرجت عن خطّ سيرها، ولا القمر تمرَّدَ على النّظام الّذي يحكُمُ حركتَه، والنّتيجة الّتي ترتَّبت على ذلك انتظام الحياة على الأرض واستمرارها، وثبات النّظام الّذي يحكمُها، بحيث يستطيع العلماء أن يبنوا دراساتِهم، وأن يُجروا حساباتهم، فيحدّدوا مواعيد شروق الشّمس وغروبها في كلّ يومٍ من أيّام السّنة، كما يستطيعون أن يحدّدوا المواقيت الّتي تشير إليها حركة القمر في السّماء هلالًا وبدرًا، وغائرًا في المحاق معلنًا انتهاء الشّهر، ومولودًا من جديد معلنًا بداية شهر جديد، كما يستطيعون تحديد مواعيد الكسوف والخسوف للشّمس والقمر بمجرَّد اعتماد المُعادلات الحسابيّة الّتي تحكم حركتهما.

هذا النّظام الكونيّ اللامتناهي في دقّته، هل يُمكنُ أن يكون قد تولّدَ من مجرّد صدفةٍ؟ وإذا كان تولّدَ من انفجار كونيّ هائل، وهو ما يرجّحه علماء الفلك، فهل يُعقل أن يكون انفجارًا أعمى لم توجهْه حكمةُ حكيم؟ وإذا سلَّمنا بأنّه انفجارٌ أعمى ولّد حركة الكواكب والنّجوم، فهل يُعقل أن تستمرَّ حركة الكواكب والنّجوم على مدى مليارات السّنين وَفق هذا

النّظام الدّقيق من دون أن يطرأ أيّ تغييرٍ على السّرعة أو الاتّجاه؟

باختصار، الصّدفة لا تولّد قانونًا، والفوضى لا تصنع نظامًا، وإذا كان من شأن انفجارٍ ما، أو حدَثٍ ما، أن يولِّدَ حركةً منتظِمةً بفعلِ قوّةِ دفْعٍ معيّنة، فإنّ قوّة الدّفع هذه لا بدَّ من أنّ تخفَّ قُدرتُها معَ مرور الوقت على الفعل، وهذا ما يؤدّي، منطقيًّا، إلى اضطراب الحركة المتوازنة المتولِّدة قبل أن تتلاشى.

أمام هذا المشهد الّذي ارتسم في ذهني وأنا أراقبُ وأتأمَّل، ذهَبَ تفكيري إلى أمرٍ آخر، وهو الإنسان نفسُه، وتحديدًا هذا الجسم الّذي نحيا به وفيه. طبعًا، أنا لستُ طبيبًا أو عالمًا في مجال التّشريح، لكنّني أدرك أنّ الإنسان يعيش حياته مستفيدًا من مجموعةٍ من الأجهزة الّتي تعملُ في جسمه. جهاز تنفّس. جهاز هضميّ. منظومة عصبيّة. شبكة كبيرة جدًّا من الأوردة والأعصاب المتناهية في الدّقّة. دماغ يتلقّى الإشاراتٍ ويُعطي الأوامر. عينان تنظران وَفق نظامٍ شديد التّعقيد. أذنان تسمعانِ وَفق آليّةٍ محدّدة. يدان متقابلتان تُحسِنان التقاطَ الأشياءِ والتصرُّفَ بها، قدَمانِ تسعيان وتُساعدانِ في الانتقالِ من مكانٍ إلى آخَر. قلبٌ ينبضُ بحركةٍ ذاتيّةٍ ولا يكفُّ عنِ الخفقانِ طوال حياة المرء. مليارات الخلايا الّتي تنمو وتتغيّر وتتبدّل باستثناء خلايا الذّاكرة الّتي إذا تبدّلت تلاشت الذّاكرة وغابت، والكثير الكثير من التّفاصيل الظّاهرة والباطنة الّتي لا يتّسع المجال للإحاطة بها (كآليّة عمل الجهاز الهضميّ والجهاز التّنفّسيّ والدّورتينِ الدّمويّتين، وعمل الكبد والبنكرياس والكليتين..... أيُعقل أن تكون كلّ هذه الأجهزة قد تكوّنت بمحض الصّدفة؟ أستطيع أن أفهم أنّ هناك أجهزةً في الجسم إذا غابت تغيبُ الحياة نفسها، كالقلب والرِّئتين وما شابه من أجهزةٍ حيويّة، ولهذا نستطيع أن نقول إنّ وجودها قد تفرضُه الطّبيعة وإلّا لما كان للكائن أن يكون، بمعنى أنّ جسم الإنسان قد «يحصِّلُ» عمَلَ الرِّئتين مثلًا بالقوّة لأنّه بحاجةٍ إلى الهواء، وأنّه «يفرض» عمل الجهاز الهضميّ لأنّه بحاجةٍ إلى هضم الطّعام، وذلك بموجب قانون الصّراع من أجل الحفاظ على البقاء، لكنْ، هناك أجهزة وأعضاء يمكن أن تستمرَّ الحياة من دونها كالعينين والأذنين واليدَين والقدَمين، فقد كان ممكنًا أن تنشأ سُلالة البشر من دونِ عينين، أو من دون أُذنين، أو من دون أنف، أو من دون يدَين، أو... أو ... وتستمرّ الحياة على هذه الشّاكلة، فهل وُجدت هذه العناصر نتيجةَ الصّدفة أم أنّ هناك قوّةً حكيمةً جعلَت هذه الأعضاء في صلْبِ تكوين الجسم البشريّ لأنّها تُدركُ أنّ الإنسان بحاجةٍ إليها ولا تستقيم حياته إلّا بوجودِها؟

كلُّ هذه الحقائق أوصلتني إلى استنتاجٍ ثابتٍ أكيد، وهو أنّ هذا الكون الهائل لا يمكن أن يكون في وجوده وليدُ صدفةٍ عمياءَ أو عواملَ طبيعيّةٍ عابثة، وأنّ هذا الجسم البشريّ الّذي هو بالفعل في أحسنِ تقويمٍ لا يمكن أن يكون قد نشأ نتيجة بعض التّفاعلات الطّبيعيّة بطريقةٍ عشوائيّة قائمة على الصّدفة، أو حتّى

على أساس أيّ قانونٍ منَ القوانين الموجودةِ في الطّبيعة.

عند بلوغي هذه النّقطة في التّأمّل والتّفكير ، تغيَّرَت نظرتي إلى الكون والحياة، وبنيتُ سلوكي على أساس أنّ رحلتنا في هذه الحياة ما هي إلّا جزء من رحلةٍ أكبر، وأنّ الموت ليس سوى معبر، أو نقطة انتقال من مرحلة إلى مرحلة، أو من حالٍ إلى حال. هذه النّظرة كانت بمثابة حجرِ أساس، وأستطيعُ أن أقول إنّ دوران الأيّام قد رسّخَ فيَّ هذه النّظرة، وزاد من إيماني بها ، فأمام كلّ تفصيلٍ من تفاصيل الحياة اليوميّة كنتُ أرى وألمح ما يؤكّد أنّ الحياة التي نحياها لا يمكن أن تكون حالةً عرَضيّة أوجدَها التقاءُ بعضُ العواملِ الطّبيعيّة، وإنّما هي عبارة عن نظامٍ كونيٍّ متكاملٍ بنَتْه ونظَّمتْه قوّة حكيمةٌ قادرة، ومَدَّته بالعواملِ الّتي تؤمِّن استمراره، في ظلِّ رعايتِها وحكْمتِها.

سبقت الإشارة إلى أنّني بنيتُ سلوكي في الحياة على أساس النّتيجة الّتي توصّلتُ إليها ورسخَت في ذهني وتفكيري، وهنا أريدُ أن أكونَ صريحًا جدًّا في هذا المجال، فأنا بدأتُ صيام شهر رمضان المبارك في سنٍّ مبكرة (العاشرة أو أكثر بقليل) وكنتُ في ذلك الوقت في موقعٍ بين الإيمان والتّقليد، أمّا الصَّلاة فلم أبدأ بتأديتها إلّا بعد بلوغي العشرين، إلّا أنّني في هذه المرحلة كنتُ قد رسوتُ على برّ الإيمانِ العميق بالله الواحدِ الأحد الّذي خلَقَ وقدّرَ وهَدَى، وعمدتُ بعد فترةٍ إلى قضاءِ ما فاتني من فروضِ الصّلاةِ خلال سنوات التّكليفِ الأولى، وأسألُ الله تعالى أن أكونَ قد وُفّقتُ إلى قضاء ما عليّ وأن تكون ذمَّتي قد برئتْ في هذا المجال.

في خضمِّ الحديث عن هذا الأمر، لا بدَّ من أن أشير إلى ما تتركُهُ حلاوة الإيمان في النّفس، فالإيمانُ يُعطي الحياة برمَّتها معنًى ويجعلُ لها هدفًا، ويربطُها بسيرورةٍ وصيرورة تمنحانِ الإنسانَ شعورًا بالرِّضا برغمِ ما في الحياة نفسِها من مصاعبَ ومتاعب.

طبعًا ، قد لا يكون هذا الكلام مفهومًا لدى البعض، أو قد يُعتبَرُ كلامًا إنشائيًّا غيرَ ذي مضمون، ولكي تتوضّحَ الصّورة، لا بدّ من تقديم بعض الشّرح والتّفصيل. فالحياةُ قائمةٌ على عددٍ كبير جدًّا من التّوازنات، وهذه التّوازنات تبدأ من أصغرالأشياء وتنتهي بأعظمها.

يعمل العامل، فينال أجره. منه العمل، ومن ربّ العمل الأجْر. بهذا التّوازن بين العمل والأجر يندفعُ في عمله، ويستقيمُ إيقاع الحياة عنده.

ينكبُّ الطّالب على المذاكرة ليحصل على النّجاح. منه المذاكرة، ومنَ المدرسة أو الكلّيّة شهادة النّجاح. بهذا التّوازن بين المذاكرة والنّجاح يندفعُ في سعيه، ويحلو له التّعب.

يُنفقُ الأب على أولاده في تأمين احتياجاتِهم على مختلِفِ المستوَيات آملًا أن يراهم أفرادًا ناجحين. بهذا التّوازن بين الإنفاق والهدفِ المَرجو تحقيقُه يندفعُ الأبُ ويحلو له العطاء.

والواقع أنّ نظام التّوازن لا ينطبقُ على

حياة الإنسان وعمله فقط، وإنّما يطال كلّ الموجودات، فالشّهيق يقابله زفير، والمَدُّ يقابلُه جزْر، والنّهار يقابله ليل، والنّور يقابله ظلام، والسّالب يقابله موجب، والتّعب تقابله راحة، واليقظة يقابلها نوم، والصّعود يقابله هبوط، وهكذا .. وتطول اللّائحة لتشملَ كلَّ الموجودات.

بالعودة إلى حياة الإنسان، قلنا إنّ حياته قائمة على التّوازن بين أخذٍ وعطاء، وهذا التّوازن هو ما يجعلُه يُقبِلُ على التّعب بنفسٍ راضيةٍ واندفاعٍ يحدوه الأمل، لكنْ، هناك سؤال لا بدَّ من أن يطرح نفسَه، وهو : إذا كان مبدأ التّوازن ينطبقُ على تفاصيل حياة الإنسان اليوميّة من صغيرها إلى كبيرها، فهل ينطبقُ على الحياة نفسِها؟ بمعنى، هل الحياة نفسها الّتي تمتدُّ على مدى عُمر الإنسان، بما فيه من تعبٍ وراحةٍ، ومن حزنٍ وفرح، ومن بؤسٍ وسعادة ، تخضع للمبدأ نفسِه؟ أي هل هناك مقابل يستطيع الإنسان أن ينتظرَه بعد هذه الحياة؟ أم أنّ الموت يرسم نقطة النّهاية الّتي لا شيءَ بعدَها؟

الواقع أنّ هذا السؤال يشكّل مصدر هاجسٍ كبير يؤرّقُ الإنسان منذ اللّحظة الّتي يتفتّحُ فيها وعيُهُ على الحياة والوجود، ويرافقُه معَ تقدُّمِه في العُمر، ومعَ خوضِه لتَجارِبِ الحياة المختلفة: هل يُعقل أن أعيش ما قُدِّر لي أن أعيش على سطح الأرض ليذهبَ تعبي بعد ذلك هباءً؟ هل يضيعُ كلُّ ما قمتُ به في حياتي وكأنّه لم يكن؟ هل تنطوي صفحتي يومًا وكأنّي لا جئتُ ولا ذهبتُ؟... هذه الأسئلة القاسية، وغيرها كثير، تطرقُ ذهنَ كلّ إنسانٍ عاقلٍ في هذه الحياة، وتسبّبُ له قلقًا يرافقُه في كلِّ حركاته وسكناته، ويُلِحُّ عليه كلّما وضع رأسه على المخدّةِ في نهاية يومٍ من أيّام حياته.

هذا القلق هو قلقٌ مبرَّر عندما يكونُ الإنسان في مرحلة البحث عن الحقيقة، أمّا عندما يفكّر ويتأمَّل ويربُطُ الأمور ببعضها، ويتوصَّلُ بالعقل والمنطق إلى ما توصّلتُ إليه، فإنّ هذا القلق يتحوّل بالفعل إلى راحةٍ نفسيّة، وإلى شعورٍ عميقٍ بالاطمئنان، فاللهُ تعالى هو الّذي خلَقَ هذا الكون، ووضع له الأنظمةَ والقوانين ليتحرَّكَ بمُنتهى الدّقّة والنّظام، وخلقَ الإنسان وزوّدهُ بكلِّ ما يلزم لتستقيمَ حياتُه على هذا الكوكب، وأخبرَنا عَبْرَ الكُتب السّماويّة جمعاء، وعلى لسانِ جميع الأنبياء والمُرسَلين، بأنّ هذه الحياة ليست سوى ممرٍّ أو معبرٍ، وأنّ هناك حياةً آخرة، ينالُ فيها الإنسان جزاءَ ما زرعَه في هذه الحياة الدُّنيا من أعمالٍ وأفعال، فإذا كانت خيرًا كان الثّواب، وإن كانت شرًّا كان العقاب.

إذًا، فالحياة ليست مجرَّدَ حالةٍ عابرة عرَضيّةٍ يمرُّ بها الإنسان وتنتهي بنهاية وجوده على سطح الأرض، وإنّما هي معبَرٌ إلى حياةٍ أُخرى تكون بمثابة المُقابِلِ الّذي ينالُه الإنسان بعد ما قدّمه في حياتِه الأولى من عمل، وما عاشه فيها من تجارِبَ حُلوةٍ أو مُرّة، وإذا كان الموت يُقابلُ الحياة في نظام التّوازنات، فإنّ الحياة الدُّنيويّة برمَّتِها، المحدودة في الزّمن، تقابلُها حياةٌ أخرويّة لها صفة البقاء والخلود. هذا الأمر يُخرج الإنسان من دائرة اليأس

والإحباط، ويضعُه على ضفّة الاندفاع في العمل راجيًا الحصولَ على مُقابلٍ لِما أعطاه ويُعطيه في الحياة الّتي يحياها، فالموتُ ليس نقطةَ نهاية، ونهايةُ الحياة الدُّنيوية ليست لحظةَ فناء، والانتقال من سطحِ الأرضِ إلى جوفها ليس إيذانًا باندثار. إنّما هو عبورٌ من مرحلةٍ إلى مرحلة، ومن حالٍ إلى حال.

عند بلوغ هذه النّتيجة ، يُدركُ الإنسان أنّ وجودنا على سطح هذا الكوكب يدخُلُ برمَّته في معادلة التّوازن الّتي تحكُمُ الموجودات، فإذا كانتِ الحياة تشكِّلُ إحدى ضفَّتي نهر الوجود فيما يشكّل الموتُ ضفّته الأُخرى، فإنّ

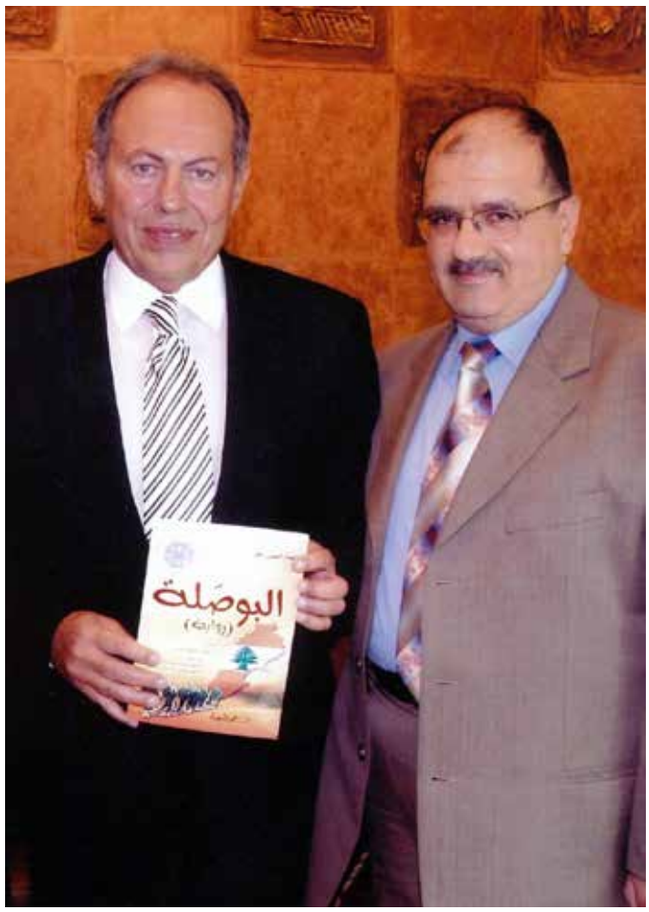

مع الرّئيس العماد إميل لحّود

أعمالنا فيها هي بمثابةِ الرَّصيدِ الّذي نجمعُه ونكوِّنُه، ويقابلُه الحساب الّذي ينتظرنا بعد نهاية رحلة الحياة، بما في هذا الحساب من مساءلةٍ وثوابٍ وعقاب، وهنا يتَّضحُ ما عنيتُه بحلاوة الإيمان الَّذي يُعطي الحياة معنًى، ويَجعلُ لها هدفًا، ويربطُها بسيرورةٍ وصيرورةٍ تَمنحانِ الإنسانَ شعورًا بالرِّضا واحساسًا بقيمة الحياة وما يدورُ فيها.

مع فضيلة الشّيخ عفيف النّابلسي

مع فضيلة الشّيخ صادق النّابلسي

مع أمين عامّ «اتّحاد الكُتّاب اللُّبنانيّين» د. أحمد نزّال

مع الأديبة إميلي نصر اللّه

مع الفنّان دريد لحّام

مع الأديب سلام الرّاسي والنّائب علي عسيران

مع الفنّان محمّد شامل

مع الفنّان نور الشّريف

مع الفنّان ناجي شامل

مع الشّاعر باسم عبّاس

مع الشّاعر د. عبّاس فتوني

مع الشّاعر حسن بيّومي

مع الفنّان منير كسرواني

مع الشّاعر نزار الحُرّ

مع الشّاعر السّيّد محمّد مصطفى

مع الشّاعر أسعد سعيد

مع الشّاعر هنري زغيب

مع الشّاعرة د. عايدة قزحيّا

مع د. عبد المجيد الحُرّ، الشّاعر مارون كرم، والسّيّدة نجلاء سعد

خلال حفل تكريم من «جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة في صيدا»

خلال حفل تكريم في ثانويّة الغازيّة الرّسميّة
وبدا مديرها أ. محمّد حسّون

خلال حفل تكريم في ثانويّة حارة صيدا الرّسميّة

مع طلاّب ثانويّة د. نزيه البزري الرّسميّة

وتوقيع آخَر..

خلال ندوة «البوصَلة» في ثانويّة المقاصد الإسلاميّة في صيدا، من اليمين: د. يحيى شامي، د. محمّد أسعد النّادري، د. منيف موسى، وعصام الحُرّ

خلال ندوة «خيمتان وغرسة» في ثانويّة «السّفير» في الغازيّة، من اليمين: الأب ميشال قنبر، السّيّدة رغدة خليفة، أبو عبد الله نحّولي، عصام الحُرّ ود. سلطان ناصر الدّين

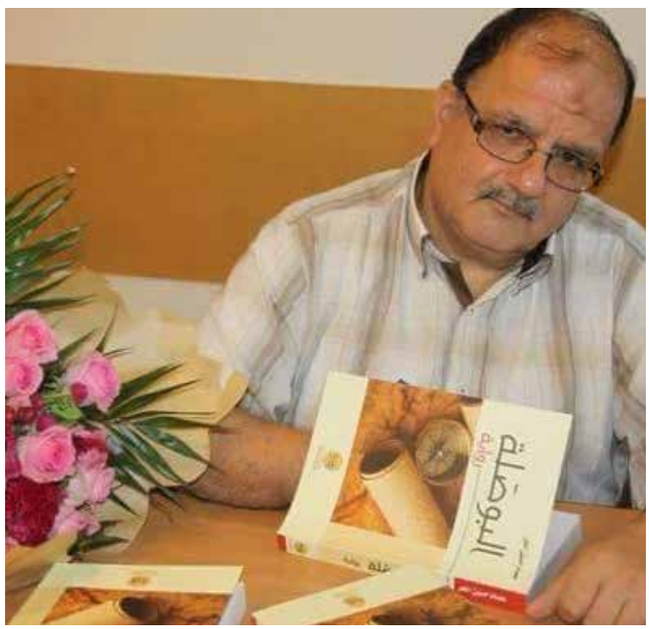

توقيع

مع فضيلة القاضي الشّيخ محمّد أبو زيد

في مُعتقَل الخيام

مع الفنّان
محمود مبسوط
(فهمان)

في الطّائرة خلال العودة من أداء فريضة الحجّ مع الوالدة
والزّوجة (2003م)

مع الزّوجة وردة والابنة حوراء

خلال أداء فريضة العُمرة مع الزّوجة والابنة (2010م)

مع الأستاذ فيليب شمّاس